تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

ابتداء دولة المغول وهم التتر

ان وطن التتر الاوّل قبل تبسّطهم في هذه البلاد الخارجية كان وادياً او بقعةً فسيحةً شرقي شمالي المعمور مساحتها مسير ثمانية شهور طولاً وعرضاً. وبقتهم هذه يحدّها شرقاً وطن الكتيّين الصينيين اعني الخطا . وغرباً وطن اليغوريّين الاتراك . وشمالاً ارض تُدعى سلنجاي. وجنوباً الهند . وقبل ظهور جنكزخان اول ملوكهم لم يكن لهم زعيم بل كانوا يؤدون الجزية لملك الكتيّين اعني الصينيّين . وكانوا يلبسون جلود الكلاب والذئاب ويأكلون (٤٠٩) الغيران وسائر الحيوانات الكريهة الميتة . ويشربون حليب الافراس . وعلامة زعيمهم الفارقة أنّ ركاب فرسه يكون من حديد وركاب البقية من خشب .

وفي هذه السنة وهي السنة ١٥١٤ لليونان (١٢٠٣ م) و٥٩٩ للعرب كان أونك خان اعني يوحنا الملك المسيحيّ متولّياً شؤون قبيلة من قبائل الهونيّين البرابرة يقال لها كريت . وكان جنكزخان ناهضاً بخدمته دائماً فلمّا اطلع اونك خان على نباهته وذكائه ونجاحه المتواصل حسده وحاول ان يقبض عليه ويفتك به . فشعر صبيّان من صبيان اونك خان بالدسيسة وأخبرا جنكزخان . وهذا بدوره أخبر أصحابه فتركوا خيامهم ليلاً واختفوا في مكمن . وعند الصباح تفقد اونك خان الخيام فلم يَرَ بها احداً . وانقضّ عليه اذ ذاك اصحاب جنكزخان واصطدم الفريقان بجانب معين يقال له بالشريه . وانتصر فريق جنكزخان وانكسر فريق اونك خان . وتناوش الفريقان غير مرّة حتى هلك فريق اونك خان وقُتل هو كذلك وسُبيت نساؤه وابناؤه وبناته . امّا ذانك الصبيّان فقد شرّفهما جنكزخان ووضع لهما ناموس حريّة باتهما في ايّ معركة حضرا هما وأبناؤهما من بعدهما جيلاً بعد جيل فلا يؤخذ منهم أحد .

ولهم ان يدخلوا دُور الملوك دون استئذان . واذا اقترفوا ذنباً فلا يُعاقبوا. ثم كافأ سائر الذين رافقوه في تلك المعركة وجعلهم زعماء . وكان في جملتهم بعض المغول المشهورين باسم اويرتين وقد أبدوا بطولة اكثر من غيرهم وجاهدوا خير جهاد وبالغ جنكزخان في تشريفهم ووضع شريعة تفرض (٤١٠) على كل ابنا. الملوك المتحدّرين من سلالته ان يتخذوا العرائس من بناتهم . وان يتخذوا هم كذلك العرائسَ لبنيهم من بنـات الملوك . وجرت تلك الشريعة بينهم حتى يومنا هذا .

اما الملك يوحنا الكريتيّ فلم يرذله الله تعالى الّا بعد ان زاغ قلبـه عن محبة المسيح مولاه الذي رفع مقامه. فقد اقترن بامرأة اسمها قراخطا من القبائل الصينية. وهجر دين آبائه وعبد الآلهة الغريبة . ولهذا انتزع الله جلّت احكامه المُلك من يده وأعطاه لمن هو أفضل وأعدل منه .

وظهر آنئذٍ بين التتر رجل يطوف الجبال والتلال عرياناً وسط الشتاء في البرد والزمهرير القاسي في تلك البلاد ويغيب اياماً ثم يأتي ويقول : اني زرتُ الله سبحانه وكلّمني وقال : ان الارض باسرها قد اعطيتها لتموجين واولاده وسمّيته جنكزخان . وكان اسمه القديم تموركين وسمّاه التتر تُبت تنكري.

ابناء جنكزخان

وَلد جنكزخان بنين وبنات كثيرين . اشهرهم واعظمهم اربعة هم الذين ولدتهم الملكة الكبيرة واسمها ياسونشين باجي. اولهم توشي . ثانيهم جغاتاي. ثالثهم اوكتاي . رابعهم تولي . فولّى توشي امر الصيـد والطرد وهو احبّ الامور واكرمها لديهم . وولّى جغاتاي أمر الشرع وهم يدعونه أليامه . وولّى اوكتاي سيـاسة المملكة . وولّى تولي الصغير أمر الجيوش والقواد . وعيّن لكل من الاربعة بلداً خصوصيًا يقيم فيـه . اما اخوه (٤١١) اوتكين تومان فانام مع ابنا. عمه وانسبائه في بلاد الخطا .

الشرائع التي وضعها جنكزخان

لم يكن للمغول كتاب وكتابة فامر جنكزخان العلما. الايغورتين فلقّنوا

ابنا. التتر لغتهم . وصاروا يكتبون اللغة المغولية بحروف ايغورية كما يكتب الاقباط لغتهم بحروف يونانيـة والعجم بحروف عربية . ثم أمر ان تُكتب الشرائع التالية :

الاوّل : اذا ارادوا ان يكتبوا الى الخوارج او يرسلوا اليهم سفيرًا فلا يهدّدونهم بكثرة جيشهم وعددهم بل يكتفوا ان يقولوا لهم : ان اطعتمونا فزتم بالخير والراحة وان خالفتمونا فـلا نعلم نحن بل الله الازليّ يعلم ما يحلّ بكم. وفي ذلك يبدو اتكالهم على الرب وهذا ما جعلهم يغلبون وينتصرون.

الثاني: ان يعتبروا ويحترموا الاعفّا. والأطهار والابرار والاساتذة والحكما. من اية امّة كانوا . وان يعتنوا الاشرار والائمة . وبنا انهم شاهدوا العفاف وتلك المزايا في المسيحيين اكثر من غيرهم فقد احبوهم في بدء دولتهم مدة وجيزة ثم انقلبت محبتهم بغضاً حتى أصبحوا لا يرضون ان يلحظوهم بعيونهم ثم أسلموا قاطبةً ربواتٍ في ربوات من مختلف الامم .

الثالث : ان لا يلقبوا ملوكهم واقطابهم القابا كثيرة حافـلة بالتقريظ والتبجيل على مثال سائر الامم ولاسيما المسلمين . وان يكتفوا لمن يستوي على عرش المملكة بلقب واحد فقط وهو خان او قان . اما اخوة الملك وانسباؤه فيجب ان يسموه باسمه الاول يوم ميلاده .

الرابع : عندما يكونون في طمأنينة من قتال الاعـداء يجب ان يلتهوا بالقنص ويدرّبوا ابنـاءهم في قنص الحيوانات كي يصبحوا محنّكين في الحرب ويحرزوا القوّة والصبر على الضيم . واذا بارزوا اعداءهم وجب ان يبارزوهم مبارزة الوحوش دون هوادة .

الخامس : يجب ان يتولى رئيسٌ واحد على عشرة من المحاربين ممن بلغوا العشرين من سنهم فصاعدًا . ويتولى كذلك رئيس على المائة ورئيس على الالف ورئيس على الربوة

السادس : يلزم كلّ الشعب (٤١٢) المغولي ان يساعـد الملك كل سنة بماله وثروته من خيل وغنم ولبن حتى الصوف .

السابع : يجب ان يظـلّ العسكري في صفة سواء اكان من الالف ام من المائة ام من العشرة ولا ينتقل الى مكان آخر والّا قتل هو والذي يقبله.

الثامن : يجب ان يُفرز من كل ربوتين من الخيل مركوبٌ للسفرا، يقف على ناحية الطريق .

التاسع : لا يؤخذ شيء للملك من تركة من يموت دون عقب . بل يجب ان تبقى تركته وامرأته لمن كان يخدمه .

وللمغول شرائع اخرى كثيرة ضربنا الصفح عنها حذرًا من الاسهاب وقد اوردنا منها بعضاً من عِدّ .

كيف انضمّ المغول الى عبادة الاوثان

لم يكن للمغول في اول الامر كتابٌ ولا دين خصوصيّ لكنهم عرفوا الاهاً واحدًا خالق الكلّ . وكان بعضهم يسمّون السماء الاهاً ويعتقدون هكذا حتى تغلبوا على الاتراك الايغوريين وصادفوا بينهم سَحَرةً يقال لهم قاميون . وسمعنا الكثيرين منهم يشهدون ويقولون : اننا سمعنا اصوات الابالسة تكلمهم من نوافذ الخيام . ذلك بعد ما يتنجّسون من رجالٍ آخرين لان اغلبهم خنافس. وتبلغ قذارتهم الى حدّ انهم اذا راموا عمل شيء من سحرهم اغتصبوا كل من صادفوه واضطرّوه ان يتنجّسهم . فلمّا شاهدهم المغول على تلك الصورة مالوا اليهم بقلبٍ سليم .

وبعد هذا بلغ جنكزخان ان للصينيّين اعني الخُطا اصناماً واحبارًا حكماء فارسل اليهم وفودًا وطلب منهم احبارًا ووعد انه يعاملهم اكرم معاملة . ولما وصلوا اليه امر ان يعقدوا جلسة مع القاميّين للمناظرة والجدال في قضية الدين. فتكلم الاحبار واوردوا شيئًا من كتابهم الذي يسمّونه «نوما» وتغلّبوا على خصومهم وأفحموهم وهم خالون من كل علم . ومن ثم ازداد اعتبار الاحبار لدى المغول فامتثلوا امرهم (٤١٣) واستنبطوا لهم اصناماً وسبكوا لهم تماثيل على شاكلة بلادهم وجعلوا يقرّبون الذبائح والضحايا كعادتهم . وعلى اكرامهم للاحبار لم يحتقروا خصومهم القاميّين وغدا الحزبان ما بينهم يتفرّد كل حزب بعمله لا يحتقر احدهم صاحبه . ذلك خلافاً للامم اصحاب الكتب والانبياء فانهم كلما اجتمعوا ثلبَ احدهم صاحبه وحكم بانه كافر .

وفي كتاب الاحبار المذكور نُبَذٌ من أمثال الوثنيين ممّا اورد بعضه القديس

غريغوريوس اللاهوتي وبينها شرائع حسنة : كالنهي عن الغدر والاذى وعن مقابلة السوء بالسوء وعن قتل الحيوان الصغير كالفصل والبق . وهم يعتقدون عقيدة افلاطون بتناسخ الارواح . وان الابرار والصديقين الصالحين تنتقل بعد موتهم ارواحهم الى اجساد الملوك والزعماء . وتنتقل ارواح الاشرار والاثمة الى اجساد مقترفي الشرور فتعذبها وتنكل بها . وقس عليها اجسام العجماوات والدوابات والطيور . واذا أحضر احدٌ لاولئك الاحبار لحماً ليأكلوا سألوه : هل قتلتَ هذا الحيوان لاجلنا ام اشتريته من السوق ؟ فاذا قال لاجلكم أبوا اكلهُ .

ما الذي دفع المغول ليحاربوا بلاد العجم وغيرها من بلاد الغرب ؟

لم يكن للمغول حضارةٌ فاحتاجوا الى استحضار ألبسة وفرش من سائر المدن . وكتب جنكزخان الى التجار يؤمنهم كي يحضروا الى بلاده وامر حرّاس الطرق اعني القرقوشيين ان لا يتصدّوا لاحد منهم . فأقبل ثلاثة رجال من بخارى في ثياب واقمشة ممتازة وبضائع مختلفة عرفوا ان المغول في حاجة اليها ووصلوا الى المعسكر الكبير . فأمر جنكزخان اصحابه فأشرفوا على تلك البضائع (٤١٤) وسألوا عن قيمتها . فطلب احمد احد اولئك التجّار الثلاثة الفين ومائة درهم فضةً بما قيمته عشرة دنانير . فسخط جنكزخان وقال : هل يظنّ هذا الانسان اننا لم نشاهد بضاعةً البتة ؟ ثم اشار الى القهارمة فأحضروا بضائع مذهبة كثيرة وعرضوها على اولئك التجّار . ثم أمر باعتقال ذلك التاجر وكتابة كلّ ما معه . ثم احضروا التاجرَين الآخرين واطلعوا على بضائعهما وسألوا عن قيمتها فلم يذكراها لهم لكنّهما قالا : انا جئنا بهذه البضائع كهدايا للخان فاذا احبَّ ان يتكرّم علينا بشي فهو يعرف . فأعجب الخانَ كلامهما وأمر ان يدفعوا لهما بدلاً من كل آنية مذهبة سبعمائة مثقال . وبدلاً من كل قطعتي قماش قطن سبعمائة مثقال فضّة . ثم اشفق على التاجر الثالث ودفع له مثلما دفع لرفيقيه .

ثم اصدر السلطان امره الى الملكات والى ابنائه وبناته ليدفعوا ذهباً لعبيدهم ويرسلوهم مع اولئك التجّار الثلاثة ليأتوهم ببضائع . فامتثلوا الامر

واجتمع زها. اربعمائة تاجر وأرسلَ معهم سفيرًا الى محمّد سلطان العجم يقول : قد أوصينا ان يسود الامان دولَ الارض كلّها منذ الآن فصاعدًا . وان يغدو التجّار ويروحوا دون خطر ليعيش الاغنيا. والماكين في السلام ويشكروا الله تعالى . ولمّا ارتحل السفير والتجّار ووصلوا الى مدينة اوترار بالعجم أرسل ايناشاوق الوالي فاخبر السلطان فطمع السلطان بما معهم وأمره ان يقضي عليهم كافةً خفيةً . فنهض الوالي بأمر وأفلت واحدٌ منهم باشارة الهية وعاد فاخبر جنكزخان بما جرى . فاستشاط غضباً وقصد وحده قمّة الجبل وكشف رأسه ولصق وجهه بالتراب واقام هناك ثلاثة ايّام طاوياً (٤١٥) يحدّق في السما. ويقول : ايّها الربّ الخالق الاكوان انت تعلم ان غايتي انّما هي للخير . وهذا عدوّي هو الذي بدأ يريد الشرّ . فأتوسّل اليك ان تجازيه حسب اعماله . ومذ ذاك جعل جنكزخان يوجّه الجنود الى بلاد العجم ليحاربوها بفم السيف كما سنذكر ذلك .

انتزاع الفرنج قسطنطينية من اليونان.

في نيسان السنة ٩٠٠ للعرب و ١٥١٥ لليونان (١٢٠٤م) انتزع الفرنج قسطنطينية من اليونان وألغوا دولتهم منها . وكان ملك اليونان قد اقترن باخت الملك فرنسيس وولدت له ابناً . وكان لملك اليونان اخٌ خرج عليه وقفأ عينيه وأماته في السجن . فانهزم ابن القتيل يريد خاله الملك فرنسيس فحملته النخوة وجنّد الجنود واقبل الى قسطنطينية وحاصرها . وكان الاهالي حاقدين على الطاغية قاتل اخيه فاضرموا المدينة بالنار والتهى المحاربون على الاسوار فتسلّق الفرنج وهبطوا المدينة وهزموا الطاغية . وقلّدوا ذلك الفتى عرش المملكة بالاسم والصورة وتولّوا هم الامر . وجعلوا يضايقون الاهالي بالضرائب الباهظة. وابتزّوا امتعة الكنائس والصلبان وصفائح الاناجيل وما على الصُوَر من ذهب وفضّة .

ولمّا شاهد الاهالي تلك القساوة وذلك النهب وثبوا الى الفتى ابن المليك وفتكوا به واخرجوا الفرنج من المدينة واغلقوا الابواب في وجوههم . وظلّ الفرنج يترسلون في الحرب خارجاً حتى كلّ الاهالي وخارت قواهم وأرسلوا

يستغيثون بالسلطان ركن الدين صاحب قونية ولكنه لم يتمكن من مساعدتهم وعند ذلك ثار التجار الفرنج القاطنون المدينة وهم (٤١٦) زهاء ثلاثين الفاً لم يدر احد بعددهم هذا الغير نظراً الى اتساع العاصمة واضرموا النيران في المدينة ثانية حتى التهمت ربعها تقريباً . ثم فتحوا الابواب للفرنج فدخلوا وامتشقوا السيوف وقتلوا من اليونان جماهير غفيرة . ولاذ الكثيرون منهم بكنيسة اجيا صوفيا فسار اليهم الفرنج وخرج اليهم البطريرك والاساقفة والقسان حاملين الصلبان والاناجيل وخرّوا امامهم صارخين مبتهلين في شأن البقية التي في الكنيسة فلم يكترث لهم الفرنج بل اجهزوا عليهم وعلى الكهنة وانتهبوا الكنيسة .

وكان يتولى قيادة الفرنج ثلاثة زعماء : اولهم دوقس البنادقة وهو شيخ ضرير وفي سفنه ومراكبه ركبوا . ثانيهم المركيس مقدّم الافرنسيس وثالثهم غوندفلند . واقترعوا على مَن يملك قسطنطينية فخرجت القرعة للثالث . وتولى البنادقة جزيرتي اقريطش ورودس وغيرهما من الجزائر . وتولى المركيس البلاد التي هي شرقي الخليج الذي يمرّ في البنطس كاللاذقية ونيقيّة وفيلدلفية وغيرها . ولكنّها لم تَدُم له لان لشكري البطريق اليوناني تغلّب عليها وانتزعها منه .

وكان نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل وابن عمه قطب الدين محمّد ابن زنكي صاحب سنجار على ولاء تامّ . لكنّ الملك العادل القى بينهما الخلاف . ومن ثم زحف نور الدين الى نصيبين وهي لابن عمه وحاربها وكاد يحتلها لو لم يأته الخبر من الموصل بان مظفّر الدين كوكبري ابن زين الدين علي كوجك صاحب اربيل زحف الى نينوى وسباها واحرق غلاتها . بناء عليه ترك نور الدين (٤١٧) نصيبين وسار الى مدينة بَلَد فسمع ان مظفّر الدين عاد الى اربيل فسار هو الى تلّ عفر واخذها عنوةً . وكان الملك الاشرف بن العادل في حرّان يومئذٍ فأقبل الى راس العين واتفق مع مظفّر الدين صاحب اربيل ومع صاحب آمد وحصن كيفا ومع صاحب الجزيرة وصاحب دارا ليمنعوا صاحب الموصل عن اخذ شيء من صاحب سنجار . واحتشدوا جميعاً في نصيبين ثم ساروا الى باعربايا . وسار نور الدين الى كفر زمار ومنها الى بوشذه وحلّ هناك هو وعسكره ليستجمعوا قواهم . فركب الاشرف ومن معه ونازلوا نور الدين فانكسر جيش نور الدين اقبح انكسار وأفلت مع اربعة من رجاله

فقط الى الموصل . وزحف خصومه الى ضواحيها وسبوا واحرقوا وعاثوا خصوصا في مدينة بَلَد .

قيل ان امرأة كانت تطبخ طعاماً سمعت ما جرى من السبي فاخرجت دملجين من معصميها وطمرتهما في النار وانهزمت . فاقبل احد الفرسان الى بيتها يبحث عن شيء يأكله فلم يظفر الّا ببيضة واحدة فاخذها وقعد النار ليشويها وفيما كان يقلب النار عثر على ذينك الدملجين . تلك مصادفة غريبة .

واقام خصوم نور الدين أياماً كثيرة يعيثون في الضواحي والرسل يغدون ويروحون حتى استرجعوا تل عفر واعطوها لابن عمه وعقدوا الصلح وتفرّقت العساكر .

وبعد ما احتلّ الفرنج قسطنطينية استجمعوا قواهم واقبلوا الى فونيقية وسبوا حتى الاردن واجهزوا على كثير من العرب ووصلوا الى حماة فخرج اليهم ناصر الدين بن تقيّ الدين بن شاهنشاه بن ايوب فانكسر اقبح انكسار وانقلب الى حماة . وخرج الحمويون لمبارزة الفرنج فهلكوا قاطبة . فارسل الملك العادل وأعطى الفرنج الناصرة وسائر البلاد التي كانت غلّاتها تُقسم بين الفرنج والعرب وعُقدت (٤١٨) الهدنة .

وما عتم ان خرج اقوام آخرون من الفرنج واقبلوا الى مصر وغنموا غنيمة وافرة وعادوا .

وفي تلك السنة انتزع السلطان ركن الدين صاحب قلطية وقونية مدينة انقرة من اخيه بعد ما حاصرها اعواماً لانها كانت حصينة جداً . وأخرج منها اخاه وابنَيه واعطاهم قلعةً في الحدود الخارجيّة . وفيما كانوا ذاهبين وتجه اليهم اخاه ركن الدين واصحابه بشكل لصوص وفتكوا بهم . ولم يمضِ على قتلهم خمسة ايام حتى أُصيب بداء المفاصل ومات حالاً . وخلفه ابنه قلج ارسلان وهو في سنّ الفتوة . وكان ركن الدين داهيةً منتظماً في اعماله ميّالاً الى رأي الفلاسفة الخوارج لا يتظاهر بذلك .

وفي تلك السنة حدثت زلزلة مريعة قوّضت سور صور وابنية كثيرة في مصر وفلسطين وما بين النهرين والموصل وقبرس وصقلية .

وفي السنة ٦٠١ للعرب (١٢٠٤) نشأ خلاف بين الزعماء في بلاد الروم .

وارسل اميرٌ من امراء اوج ببلاد التركمان الملاصقة لبلاد اليونان فطلب غياث الدين كيكسرو الذي كان قد هرب ولاذ باليونان . وحشد جيوشاً جرّارة زحف بها الى قونية . فخرج عساكرها وكسروا المهاجمين وهزموهم . اما غياث الدين فحار في ما يصنع والى اين يذهب فلاذ بمدينة صغيرة مجاورة لقونية تدعى ابجرام . ولمّا شعر اهالي أقسرا اشفقوا عليه وطردوا حاكمهم ونادوا باسم غياث الدين وضارعهم اهالي قونية فاجتمعوا بزعمائهم ونادوا باسمه وبعثوا فاستحضروه اليهم . فالقى القبض على قلج ارسلان الفتى ابن اخيه وسجنه هو واصحابه وما عتم ان خضع له (٤١٩) اهالي البلاد اجمع . وجاء اليه اخوه قيصرشاه من الرها وكان قد هرب من وجه اخيه ركن الدين عندما انتزع منه ملطية فاعطاه ذهباً وافراً واعاده الى الرها ولم يرضَ ان يبقى لديه .

وسار السلطان غياث الدين الى قيسارية وزاره الملك الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط ونظام الدين صاحب حصن زياد وأبديا له الخضوع فعظم امره جدًا .

وفي تلك السنة سار ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا ارسلان صاحب آمد يريد الاشرف بن العادل وسأله ان يتوجه معه ويعيد اليه حصن زياد مثلما وعده . فحشد الاشرف جنود سورية والموصل وسنجار والجزيرة وزحف الى تلك المدينة واحتلها وجعل الفريقان يحاربان في القلعة . واذ ذاك توجه صاحب حصن زياد الى السلطان غياث الدين ليستنجده فسيّر اليه ستة آلاف فارس بقيادة الملك الافضل صاحب سميساط . وبيلوغهم الى ملطية سمع الاشرف وصاحب آمد فانحرفا نحو خرت برت (حصن زياد) وسارا الى بحيرة سمانين وفيها قلعتان احداهما لصاحب آمد والثانية لصاحب حصن زياد وصوّبوا القتال نحو قلعة حصن زياد وامتلكاها واقاما فيها حرّاساً . ولما وصل السلطان الى خرت برت ارتحل صاحب آمد الى بلده ورجع جيش السلطان الى بلاد الروم .

وفي السنة ٦١٥ لليونان (١٢٠٥ م) زحف الكرج الى اذربيجان وقتلوا خلقاً كثيرًا وغنموا غنائم وافرة . ثم توجهوا الى خلاط وارضروم . فتوجه صاحب خلاط يزيد ابن قلج ارسلان صاحب ارضروم واخذ من عنده جيشاً وعاد فبارز الكرج وقُتل في الحرب زكي الصغير القائد الكرجي وانهزم

الكرجيون الى بلادهم .

وفي تلك السنة ولدت امرأة ولداً ذا (٤٢٠) رأسين واربع ارجل واربع أيدٍ ومات في يومه . ودخل اعميان عربيان ليلاً احد مساجد بغداد وقتلا أعمى آخر يظنان انهما يجدان معه دراهم . ولما كان الصباح خافا وخرجا ليفرّا الى الموصل ولقيهما جنديّ ذاهبٌ في امر من الامور فقال على سبيل المزاح ان هذين الاعميين قد قتلا ذلك الاعمى . لانه لا يقتل الاعمى غير الاعمى . ولما سمعا كلمة الجنديّ جلس احد الاعميين على الارض وقال : اقسم بالله لست انا الذي قتله بل هذا . فقال الثاني : كلّا بل انت قتلته . فقبض عليهما معاً وسيقا الى المحاكم فأقرّا ان الواحد أمسكه والثاني خنقه بالحبل فامر الحاكم ان يُقتلا.

وفي السنة ٦٠٢ للعرب (١٢٠٥ م) ظهر جنسٌ من الاكراد التيرهانيّة انحدروا من جبال حاداي واحدثوا خراباً عظيماً في تلك الانحاء . فزحف اليهم جيش العجم وقتل بعدد غفير منهم . على ان هولاء الاكراد لم يدينوا بدين الاسلام بل استمرّوا في عبادتهم الوثنية المجوسيّة القديمة . وكانوا اذا وقع بين يديهم مسلمٌ نكّلوا به اشدّ التنكيل وقتلوه . ومن عاداتهم انه اذا وُلدت لاحدهم ابنةٌ وقف على باب بيته وصاح قائلاً : مَنْ يخطب هذه البنت ؟ فاذا قرر احدٌ خطبتها تركها حية والّا قتلها . ولهذا السبب نساؤهم قلائل وقد تكون المرأة لجميع رجال البيت الواحد . واذا غشيها الواحد منهم ترك حذاءه على الباب لئلا يدخل احدٌ غيره ريثما يخرج هو فيدخل الثاني . اما الولد الذي يتّلد فيكون الكبير فيهم أباه .

وفي السنة ٦٠٣ للعرب (١٢٠٦ م) زحف الكرج ثانيةً الى بلد خلاط وسبوا واحرقوا وقتلوا وانقلبوا . واحتلّ غياث الدين كيكسرو في شهر شعبان انطاكية وهي على ساحل البحر . وكان قد وجه اليها الجيوش في السنة الماضية وبعث اهاليها اليونان الى قبرص القريبة منهم يستنجدون الفرنج (٤٢١) . اما السلطان فاستدعى جيوشه من المدينة واقامهم كمناً في الجبال فكانوا كلما خرج منها احد قبضوا عليه . وظلوا متقلّبين في الضيق حتى ارسلوا الى السلطان وسلّموه المدينة . واتفق الاتراك واليونان وحاربوا الفرنج وانتزع السلطان قلعتها واستأسر من فيها من الفرنج واحتلّ كوتلس كذلك .

وفي هذه السنة استقبل امر محمد بن بكتمر سلطان خلاط فقتك بعصره هزار ديناري قاتل ابيه وقد تقلّب في عيش بذخ منذ نعومة اظفاره فابغضه الخلاطيون . وانتقض عليه بلبان احد عبيد شاه ارمن في منازكرد وارسل بعض الخلاطيين الى ناصر الدين ارتق بن ايلغازي بن ألبي بن تيمورطاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين يقولون : ان هذا ابن خال ابيك ليس له رأس ليعيش فهلمّ تسلك المدينة . فزحف صاحب ماردين في جيوش اتراك ومعدّيين وهم جياع وتهيّأوا للحرب . غير ان بلبان ارسل الى صاحب ماردين يقول : ان الخلاطيين ينفرون من المعدّيين الذين معك فالأولى ان تترك خلاط وانا ادبّر امرك . غير انه لم يرضَ فارسل اليه بلبان يتهدّده إلم يرجع الى بلده . واخيرًا لما رأى ان جيوشه قليلة خاف وعاد وشاهد بلده قد غزاه الملك الاشرف . وقد اقام الاشرف في دُنيسر وجمع منها اموالًا كثيرة وتركها وعاد الى حرّان .

اما بلبان فحشد الجنود وزحف الى خلاط ولم يتيسر له احتلالها حربًا . وجعل يعد الخلاطيين وعودًا طيبة وأقنعهم لهم ايمانًا مغلّظة بانه لن يؤذي احدًا البتة فسلّموه . ولما دخل المدينة اوثق ابن بكتمر وسجنه في احد الحصون وقوي أمره . وفي تلك الغضون سار الملك الاوحد نجم الدين ايوب بن العادل واحتل قلعة (٤٢٢) موش ومدينتها وتوجه الى خلاط . فاغلق بلبان الثغور وفتك بكثيرين من اصحابه وافلت نجم الدين مع قليل من المصابين بالضربات ووصل الى ميافرقين بلده .

وفي تلك السنة احتلّ الكرج مدينة القَرص بولاية خلاط بعدما حاصروها اعوامًا كثيرة وقطعوا عنها الذخيرة . وفي هذه السنة ٦٠٤ للعرب (١٢٠٧ م) ارسل الملك الاوحد الى ابيه الملك العادل يستنجده ليزحف الى خلاط . فسيّر اليه الملك الاشرف في جيش كثيف وحطوا الرحال قرب المدينة فبرز اليهم بلبان ولكنه عجز عن مناهضتهم وانهزم من امامهم وعاد الى خلاط وارسل سفيرًا الى مغيث الدين بن قلج ارسلان صاحب ارضروم يستنجده . فاقبل هو بذاته وخرج بلبان الى لقائه ونازلا كلاهما الملك الاوحد واخاه وحطمطخاهما وهزماهما . وواصلا الزحف الى موش وكادا يحتلانها لو لم يغدر ابن قلج ارسلان

ببلبان ويقتله ليتولى هو خلاط . لكنه لما توجه اليها سدّ الاهالي الابواب في وجهه فانقلب الى منازكرد فقاومه اهاليها كذلك فعاد الى بلده مأيوسا . ثم ارسل الخلاطيون فاستدعوا الملك الاوحد وولوه المدينة .

غير ان الولاة العرب المجاورين لم يُرُقهم ابن العادل اذ كانوا يتخوّفون من ابيه . فجعلوا يغزون الخلاطيين ولاسيما الكرج . ثم انتقض بعض الامراء الخلاطيين على الاوحد واحتلوا قلعة وان وهي من احصن القلاع في تلك الانحاء . واحتلوا معها ارغيش . ولم يتمكن الاوحد من استرجاع وان الا بعد مضايق كثيرة وتوسّط الاشرف اخيه . وقد استاء الخلاطيون بتسليم المدينة الى اصحاب العادل . ولهذا لمّا خرج الاوحد الى منازكرد لينظّمها (٤٢٣) كما يجب وثب الخلاطيون زعماء الصفوف اعني المنجداكير بلسانهم الى احزاب الاوحد وطردوهم من المدينة وحاصروا القلعة . فسمع الاوحد وزحف الى خلاط في جيوش ما بين النهرين . ووقع اذ ذاك خلاف بين الاهالي فاحتلّ الاوحد المدينة وفتك بجماهير غفيرة من الخلاطيين واعتقل الكثيرين ورحّلهم الى ميافرقين . هكذا خمدت فورة الشبان زعماء الصفوف الذين كانوا ينصبون ويعزلون من شاؤوا .

وفي تلك السنة مات غياث الدين كيكسرو وخلفه ابنه عزّ الدين كيكاوس . فقبض على اخيه علاء الدين كيقباد واعتقله في قلعة مسارا التي باسفل دير مار اهرون بالجبل المبارك قرب ملاطية .

وفي السنة عينها زحف الفرنج من طرابلس الى حمص وعاثوا في ضواحيها وتعذّر على صاحبها اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه الكبير ان يدخرهم . ولستولى القبرصيون كذلك على سفن حربية شتى واعتقلوا اصحابها . فسمع العادل وغادر مصر في جيوشه فكفّ الفرنج .

وفي تلك السنة مات كذلك علاء الدين بن قرا سنقور صاحب حراغة وخلفه ابنه الصغير وما عتم ان مات هو كذلك . فاقبل نصرة الدين ابو بكر ابن البهلوان صاحب تبريز واحتلّ المدينة وحصّنها سوى قلعة راوند فقد قاومه فيها الحاجب مربي الفتى المتوفى .

وفي السنة ٦٠٥ للعرب (١٢٠٨ م) زحف جيش ضخم من الكرج الى

ضواحي خلاط ودخلوا مدينة ارغيش واحتلوها وانتهبوها وفتكوا بشيوخها وشبانها واعتقلوا النساء والبنين والبنات وقوّضوها وتركوها قاعاً صفصفاً . وكان نجم الدين الاوحد في خلاط ولم يتمكن من مبارزتهم لكثرة عددهم فضلاً عن انه لم يكن واثقاً بالاهالي وقد سبق ففتك بالجاهير منهم . واعتقد انه ان غادر المدينة تمرّد اهلها وسلموها الى الكرج .

وحدث في تلك السنة زلزال قويّ (٤٢٤) في نيسابور اضطرّ الاهالي بسببه ان يغادروها قاطبةً الى البرّية ومكثوا هناك اياماً كثيرة حتى انتهى الزلزال فعادوا . وحدث زلزال كذلك في خراسان الا انه لم يكن قوياً كزلزال نيسابور .

وفي السنة ٦٠٦ للعرب (١٢٠٩ م) عُقد الصلح بين الملك العادل ونور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل . وزفّ نور الدين ابنته الى احد ابناء العادل . ثم اتفقا على ان ينتزعا سنجار من صاحبها قطب الدين ويتولاها العادل . ثم يحتلان جزيرة قردو من ابن سنجر شاه صاحبها ويتولاها نور الدين . وتأهب العادل واقبل فاحتلّ الخابور ونصيبين وكانتا لصاحب سنجار . فسمع نور الدين وندم وأسى كل الاسى من سكرته وافتكر انه اذا احتل سنجار والجزيرة فلا بدّ ان ينتزعها منه وينتزع الموصل كذلك من يده . ولمّا شاور المفكّرين لاموه جميعاً لانه لم يُبح لهم بما عقده مع العادل سرّاً . ثم قالوا له : لا مندوحة لك الّا بانجاز ما وعدتهُ به . والّا فيقيم عليك الحجّة ويأتي اليك كن يأتي الى من نقض الأيمان . واذ كان يتخبّط بتلك الهواجس ويتظاهر بانه يهيّئ جيشاً ليرسله الى نجدة العادل وافاه سفيرٌ ليلاً من قبل مظفّر الدين كوكبري صاحب اربيل يعده بان يحشد جيوشه ويوافي اليه ويتّفقان معاً على كفّ يد العادل من تلك البلاد . فابتهج نور الدين كل الابتهاج وحلف على ذلك وعاد السفير في الليلة عينها واخبر مظفّر الدين . فحشد جنوده وسارع حالاً وحلّ خارج الموصل . ثم ارسل سفيرًا الى الخليفة ليكتب الى العادل ويمنّعه بسبب طمعه . وسيّر سفيرًا ثانياً الى الملك الطاهر بن صلاح الدين صاحب حلب والى السلطان عزّ الدين كيكاوس فوعده الجميع بالمساعدة . زد عليه ان اصحاب العادل انفسهم لم يحاربوا سنجار حرباً قويّة ولا سيما أسد الدين صاحب حمص فقد

كان يرسل علائيةً الى المدينة قحا(٤٢٥)وعنا . وكان صاحب سنجار مستعدًا ان يسلّم البلدة ويأخذ عوضها ولكنه تشجّع وتثبت . ثم وصل سفير الخليفة الناصر ووبّخ العادل فلم يرَ الّا ان يعقد الصلح ويكتفي بالخابور ونصيبين ويعود الى سوريّة .

ولمّا كان مظفّر الدين صاحب أربيل يومئذٍ في الموصل زفّ ابنتَيه الى عزّ الدين مسعود وعماد الدين زنكي ابنَي نور الدين وكان مظفر الدين فيما سبق يعضد اصحاب العادل لكنّه لمّا ارسل صاحب سنجار ابنه متوسّلًا اليه ليراجع العادل كي يتركه في مركزه كتب اليه في ذلك واثقًا بانه لو طلب نصف بلاده لَما رفض طلبه . لكنّ العادل أغمض عن توسّله فارتاب مظفّر الدين وانضمّ الى نور الدين على رغم ما كان بينهما من المشادّة قبل ذلك .

في هذه السنة مات فخر الدين الرازيّ بالغًا ثلاثًا وستين سنةً قمريّةً وكان من افاضل فقهاء زمانه وقد استنار العرب وما برحوا يستنيرون بتصانيفه الكثيرة. ضارع اوريجانيس الذي بعدما استفاد علماء الكنيسة بتآليفه عادوا فاعتبروه هرطوقيًا وكذلك الرازيّ فقد اعتبره العرب كافرًا مجاريًا اريسطو في آرائه .

وفي السنة ٦٠٧ للعرب (١٢١٠ م) مات محمّد بن حسن إمام الاسمعيليين . وقد ضاهى أباه في علم الفلسفة وأفرغ كلّ الجهود في تقويض اركان الدين الاسلاميّ . وفتك على يد اصحابه بجماهير من الولاة الذين لم يؤدّوا له جزية فكان يرسل أعوانه ليصارعوا اولئك الولاة فتجري بين الطرفين ملاحم فظيعة. وقد طالما ضحّى الاسمعيليّون بحياتهم انجازًا لرغبة مولاهم الاثيم الطاغية (٤٢٦) واستغرقت إمامتهُ العاتية ستًا واربعين سنة حتى هلك وخلفه ابنه جلال الدين حُسَين . وتظاهر في اوّل امره انه موافق للدين الاسلاميّ يصوم ويصلّي. وكتب الى خليفة بغداد والى السلطان محمّد خوارزمشاه والى سائر ولاة العرب بانه انصرف عن عادات ابيه السيّئة وجعل يسير في الطريقة الاسلاميّة . فوثقوا به وابتهجوا واجزلوا له العطايا والهدايا الفاخرة .

وفي تلك السنة مات نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي ابن اقسنقور صاحب الموصل . وكان عادلًا قويًا يهابه ابناء رعيّته وملوك عصره. ولمّا دنا أجله استحلف زعماءه بشأن الملك القاهر عزّ الدين مسعود ابنه الكبير.

وولّى عماد الدين زنكي ابنه الصغير قلعتي العقر وشوش مع اعمالهما . واقام وصيًا لها مملوكه بدر الدين لؤلؤ وكان رجلًا مهيبًا حكيمًا يستحق ذلك المنصب . على انه لمّا ثقل المرض على نور الدين اشار الاطبّاء ان يسبح في عين دير القديس زينا بسواحل دجلة فسار مع بدر الدين وسبح ولكنه لم يستفد لان داءه كان داء الموت . وما كاد يُركبه بدر الدين سفينة ليعيده الى الموصل حتى عاجلته المنون . ولم يكن معهما سوى مملوكين فقط . فحمله الثلاثة ليلًا الى داره دون ان يشعر احد وظلّ بدر الدين طول النهار منصرفًا الى تنظيم الشؤون الضرورية حتى الساعة التاسعة فأعلن خبر موته وشيّعوه ليلًا ولحدوه في قبر سبق فأعدّه لدفنه تجاه داره . وخلفه ابنه الملك القاهر واصبحت سياسة الولاية بيد بدر الدين .

وفي السنتين ٦٠٨ و٦٠٩ للعرب (١٢١٢—١٢١٣ م) لم نعثر على خبر يستحق الذكر .

وفي السنة ٦١٠ للعرب (١٢١٤ م) مات المهذّب المعروف بابن هبل الطبيب البغدادي في الموصل . وكان وحيد عصره . درس على ابي البركات الطبيب اليهودي البغدادي . انتقل من بغداد الى الموصل ومنها الى اذربيجان ومنها الى خلاط واقام بخدمة شاه ارمن وربح اموالًا طائلة . ولمّا مرض الملك اخذ الطبيب تفسرته ليفحصها كالعادة فقال له احد العبيد : ذُقها ايها الطبيب . فسكت الطبيب وتثنّى ثم استدعاه في خلوة وقال له : هل تتنبّك احد ان تقول لي ما قلتَ ؟ هل أمرك الملك او احد أهاليه بذلك ام قلته من عندك ؟ قال العبد كلّا . لكني سمعتُ يقولون ان شرط اختبار التفسرة ذوقها . كما ان لسائر الاشياء لونها ورائحتها وقوامها . فقال الطبيب الامر كذلك ولكن لا في كلّ الامراض . واعلم انك اسأتَ اليّ كثيرًا بكلمتك هذه لان الملك اذا سمع هذا ظنّ اني قد أخللتُ بشرط واجب من شروط خدمته . ثم انه عمل على الخروج من خلاط خوفًا من العاقبة واعطى ذلك العبد مبلغًا من الدراهم راغبًا اليه ان لا يتفوّه بعبارة مثل هذه . وما عتم ان استعفى من الخدمة وابتأذن في العودة الى الموصل واقام بها حتى وفاته . وعدم بصره في آخر ايامه وكان الكثيرون يتردّدون ويقرأون الطب عليه ويتقنونه . وعاش خمسًا وتسعين

سنة. وصنف كتابا حسناً في الطب سماه المختار في اربعة مجلدات تتداوله ايدي الكثيرين حتى يومنا .

وفي السنة ٦١٠ للعرب عينها صمم جنكزخان ان يذهب بذاته الى بلاد العجم . ولما وصل الى نواحي تركستان سار في خدمته جميع الامراء هناك في عساكرهم . منهم ايدي قوب من بيش باليغ وعساكره . والامير سقناق(٤٢٨) تكين من الماليغ مع فرسانه وغيرهما . واذ ذاك وجه جنكزخان ابنه توشي الكبير في خمس ربوات الى ناحية خجند. وارسل ابنيه الآخرين جغاتاي واوكتاي الى مدينة اوتراد وتوجه هو نحو بخارى وأوصى الذين ساروا الى اوترار ليشددوا القتال عليها وقد ظلت خمسة أشهر تناوشهم . لان السلطان محمداً لم يكن يترك فيها اكثر من خمسين الف فارس وعلى رأسهم غاير خان وعشرة آلاف غيرهم وعلى رأسهم قراجا الحاجب الخاصّ . ولما رأى قراجا المذكور ان عساكره لا توازي عساكر التتر خرج في جمهور منهم من باب صوفي يريد المغول فعوّقوه الى الصبح ثم مضوا به الى ابني جنكزخان فاستنطقاه واستعلما منه كنه احوال المدينة وعساكرها وقالا له : اذا كنتَ انتَ ما ابقيت على مولاك فلن تبقي علينا كذلك ونحن في غنًى عنك . ثم أمرا بقتله وقتل كل من معه . وفي اليوم عينه احتلّ التتر المدينة وأخرجوا جميع اهاليها رجالًا ونساء الى ظاهرها واغاروا على ما فيها . وبقي غاير خان في عشرين الفاً من خيرة رجاله متفرّقين في سطوح البيوت العالية وفي ابراج السور لم يتمكن منهم المغول . وجعلوا يخرجون خمسين خمسين راجلين يقاتلون التتر ويُقتلون حتى بقي منهم نفران لا غير مع غاير خان على سطح البلاط . واحتشد عليهم اغلب التتر حتى فتكوا بذينك الاثنين بعد عناء جسيم . وبقي وحده وقد نفدت سهامه يقاتل بالآجر واللبن الذي كانت الفتيات الجواري يناولنه من الجدار . وكان قد برز مرسوم الخان ان لا يُقتل في الحرب بل يُقبض عليه حيًّا . فامتثل التتر أمره وقبضوا عليه بعد تعب جسيم ومضوا به اليه (٤٢٩) فأمر بقتله في كوك سراي اعني الدار الخضراء .

وفي السنة ٦١١ للعرب (١٢١٤ م) استولى السلطان عزّ الدين كيكاوس على سينوف بساحل بحر البنطس وقتل قير ألكس صاحبها . وفي السنة التالية

احتل انطاليا من الروم للمرة الثانية .

وفي السنة ٦١٣ للعرب (١٢١٦م) مات الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب واوصى بالولاية لابنه الصغير الملك عزيز محمد وكان عمره يومئذ سنتين وبضعة اشهر . وكان له ابن ثانٍ اكبر ولكنه فضّل الصغير لان امه كانت بنت الملك العادل معتقدًا ان يعامله بالحسنى . واقام الظاهر للابن الصغير وصيًا يقال له شهاب الدين طغرل الموصوف بعدالته وعطفه. وقد رتع الحلبيون في عهده في بحابح الخير والسلام بسبب سياسته الرشيدة. وورد الاسلاب التي استلبها الملك الظاهر في حياته الى اربابها بعد موته .

وفي السنة ١٥٢٨ لليونان (١٢١٧ م) وهي السنة ٦١٤ للعرب ارسل بابا رومية الى جميع ملوك الفرنج امرًا قاطعًا ليحشدوا جنودهم ويزحفوا الى اورشليم المدينة المقدسة وينتزعوها من يد العرب . فاجتمع امم كثيرة واقبلوا الى عكة . ولما سمع العادل زحف حالًا من مصر الى اورشليم . وبرز الفرنج من عكة وحلوا عند الماء في مغارة اللصوص . وكان العادل يجتهد ان يسبقهم اليها فتعذّر عليه ذلك وحلّ في باسان . وزحف الفرنج ليبارزوه لكنه بسبب وفرة عدد الفرنج ارتحل الى جواز دمشق ينتظر اجتماع الجيوش. فسار الفرنج وغنموا كل ما وجدوه من حدود باسان حتى بانياس وقتلوا مَن قتلوا واعتقلوا مَن اعتقلوا وعادوا الى مرج عكة (٤٣٠) في غنائمهم . قيل ان العادلَ لما غادر باسان لقي رجلًا حاملًا حملًا يسير ساعةً ويستريح ساعة . فدنا منه وحده وقال له : ما بالك تقتل نفسك يا ايها الشيخ ؟ لا تستعجل . فقال الشيخ : اذهب قل للسلطان ان لا يستعجل . لانه لو لم يستعجل هو لما استعجلتُ قطعًا ولما غادرتُ بيتي اصلًا . فخجل العادل وتركه وانصرف .

وفي تلك الغضون مات البرنس بوهيمند وخلّف ابنًا اسمه روفين ولدته له ابنة روفين ملك الارمن . وكانت المملكة تحقّ له لكنّ عمه اقتحم فانتزعها منه واحتلّها . عند ذلك سخط لاون ملك الارمن شقيق روفين الارمنيّ ونهض يدافع عن روفين الفرنجي ابن بنت اخيه فسار الى انطاكية واستحلف اهاليها بحضوره . لكنّ روفين الاحمق بعد ما ملك تجبّر وتكبّر وحاول ان يقبض على لاون وليّ نعمته ويستولي على قيليقية ايضًا . وما ان اطّلع الاخوة الفرير على

مضمرات قلبه حتى اخبروا لاون فأفلتَ دون أذًى .

وفي السنة ٦١٥ للعرب (١٢١٨ م) أبحر الفرنج الى دمياط وساروا في ارض جتره واصبح النيل بينهم وبين دمياط . وابتنى العرب برجاً كبيرًا وسط النيل يقيم فيه محاربوهم ليصدّوا الفرنج عن دخول المدينة . وظلّ الفرنج يحاربون العرب نحو اربعة اشهر حتى احتلّوا البرج واجهزوا على مَن به وحطموا السلاسل التي على النيل . وكان الملك الكامل ابن الملك العادل في جهة دمياط الثانية ولمّا شاهد تلك السلاسل قد تحطّمت ربط مكانها جسرًا ضخماً فحطمه الفرنج كذلك . فأحضر سفناً كبيرة نقبها واغرقها في ذلك المكان لئلا تسير فيه سفن الفرنج . غير ان الفرنج حفروا في الجهة الاخرى خندقاً كبيرًا عميقاً وشقّوا ترعة اجازوا فيها غديرًا عظيماً من النيل (٤٣١) وسيّروا فيها سفنهم حتى دنوا من سور المدينة وجعلوا يحاربون وهم في الماء . امّا الدمياطيّون فلم يكترثوا للفرنج اذ كانوا يعلّلون انفسهم بقرب وصول الكامل وجيوشه وكانت تأتيهم حاجاتهم كلها من البرّ . واتفق باذن الله تعالى ان وصل الخبر الى الكامل بموت ابيه العادل في دمشق وتأهب الامير ابن مشطوب وسائر الامراء الاكراد الهكّاريّة ليولّوا اخاه الملك الفائز على مصر . فاضطرّ الكامل ان يرحل الى مصر ويترك دمياط . فنشط الفرنج وخرجوا الى البرّ واحتووا على ما بقي من الاثقال في معسكر العرب وحاصروا المدينة من البحر ومن البرّ معاً . امّا الدمياطيّون فظلّوا يحاربون مؤملين وصول نجدة اليهم من العرب . وظلّ الفرنج يحاصرونهم تسعة شهور . وقطع الدمياطيون رجاءهم من المساعدة ولاسيما لان الكامل لا يتيسّر له ان يغادر مصر خيفة الخيانة والغدر . بناء عليه غُلبوا على أمرهم وسلّموا المدينة بالامان . ولمّا احتلّها الفرنج نادوا باطلاق سبيل مَن شاء من العرب ان يغادرها في بؤونته وابقاء مَن شاء البقاء فيها . والكثيرون ظلّوا فيها .

ولمّا شاهد الكامل شجاعة الفرنج خافهم خوفاً شديدًا وارسل فعوّض اسوار اورشليم لئلا يتخذها الفرنج معقلًا اذا امتلكوها .

وفي تلك الحصون تضايق زوفين الفرنجي صاحب انطاكية من البرنس الاعور عمه صاحب طرابلس . وكان لاون الارمنيّ قد تقاضى عنه لانه حاول

ان يقابله بالسوء بدلاً من معروفه . لذلك ترك روفين انطاكية وتوجه الى دمياط عند هنري جوان ملك الفرنج واقام عنده حتى مات (١٣٢) لاون .

وقد استحوذ الرعب في هذه السنة على العرب لا لخروج الفرنج عليهم من المغرب فحسب بل لتدفق المغول كذلك عليهم وزحفهم من المشرق . فقد وصلوا الى همذان واذربيجان وارزون وافتعلوا الاهوال والفظائع في كلّ بلاد العجم .

وفي ٢٧ ربيع الاوّل من تلك السنة مات الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن نور الدين صاحب الموصل واستغرق ملكه سبع سنين وتسعة شهور . وكان طول حياته يخاف الموت ويتقلّب في بحابح المعيشة لكن يحاول ان يخطف شهواته من يد الموت . وخلف نور الدين ارسلان شاه ابنه الكبير بالغاً العشرين من سنه ودُعي باسم جدّه . وقبل وفاة الملك القاهر اقام بدر الدين لؤلؤ وصيًّا لابنه كما كان وصيًّا له . وقد أحسن الوصاية وارسل الى الخليفة الناصر وحصّل له الفرمان بالملك . وراسل سائر الملوك كذلك ووطّد الصلح معهم . وساس مملكة الموصل سياسةً راسخةً مع ان الكثيرين نظير عماد الدين عمّ صاحب العقر واعمام ابيه كانوا يحاولون قتل الشاب ليملكوا مكانه . غير ان بدر الدين منعهم عن ذلك بسياسته . ثم جاد بسخاء على الزعماء وعلى وجهاء المدينة وضواحيها فأحبّوه جميعاً .

وبعد هذا كتب عماد الدين صاحب العقر عمّ الشاب الى مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب اربيل يقول : ان بدر الدين يحاول الغدر ببيتنا وانتزاع المملكة منّا . فزحف مظفر الدين الى قلعة العمادية وحشد بدر الدين جنوده وسار اليها كذلك ليدافع عنها ويقبض على عماد الدين . غير ان الشتاء وتراكم الثلج في تلك الجبال اضطرّه ان يعود الى الموصل . عند ذلك استجمع عماد الدين قواه واحتل سائر قلاع الهكارية والزوزانيّة .

وفي تلك السنة رام السلطان عزّ الدين (١٣٣) كيكاوس صاحب بلاد الروم ان يحتل حلب ولاسيما لان صاحبها طفل رضيع بعدُ . واشار زعماؤه انه من السهل اخذها ان استصحب معه الملك الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط وتظاهر بانه يقاتل في سبيله ليردّ له مملكة ابيه صلاح الدين لكونه ابنه الاكبر . فكتب اليه السلطان واستحضره من سميساط وجاد عليه بذهب

والبسة وخيل كثير وسلاح وهيأه ليرافقه الى سورية بشرط ان تبقى حلب وتوابعها للملك الافضل ويتولى عز الدين كل ما ينتزعه من الملك الاشرف من مدن ما بين النهرين هكذا حشدا الجنود وزحفا اولاً الى عينتاب واحتلاها وتسلمها الملك الافضل واستأنفا الزحف الى تل باشر واحتلاها كذلك وتسلمها السلطان عز الدين ولم يعطها للافضل . فامتعض الافضل وندم الذين سلموها . ومن ثم حقد الافضل على السلطان وجعل يؤجل عز الدين عن القدوم الى حلب وقال : الاحرى ان يحتل اولاً منبج وغيرها كي يتمكن من احتلال حلب عندما تبقى كحمامة نُتف جناحاها . ولما زحفوا الى منبج ارسل شهاب الدين الحاجب الى الملك الاشرف يتوسل اليه ليذهب يساعد الفتى الصغير ابن اخته . فتحمس الاشرف وسار الى منبج وقاتل عساكر السلطان عز الدين وكسرهم في اول وهلة فلم ير السلطان الا ان يترك كل شيء وينقلب الى بلده . اما الاشرف فانتقل الى عينتاب واحتلها واحتل تل باشر كذلك واعطاهما ثانية لصاحب حلب . اما الذين سلّموا تل باشر الى الاشرف فلما رجعوا الى بلادهم قبض عليهم السلطان عز الدين واحرقهم في احد البيوت دون شفقة .

وفي تلك السنة كان الفرنج كما قلنا محتلين دمياط . وفي ٧ جمادى الآخرة مات الملك العادل (٦٣٤) بالغاً الخامسة والسبعين ونُقل عن علقين الى دمشق ودُفن في المقبرة التي اعدّها لذاته . وكان داهيةً حقوداً صبوراً ينتقم بعد زمان . وخلّف هؤلاء البنين وهم : الملك الكامل ناصر الدين ابو المعالي صاحب مصر . والملك المعظم مظفر الدين عيسى صاحب دمشق واورشليم . والملك الاشرف شرف الدين موسى صاحب الرها وحرّان وخلاط . والملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافرقين . والملك الحافظ صاحب قلعة جعبر . والملك العزيز عثمان صاحب بانياس . والملك الصالح اسمعيل صاحب بُصار . والملك الفائز يعقوب . والملك الامجد عباس . والملك الافضل قطب الدين . والملك القاهر تاج الدين اسحق .

وفي تلك السنة لما رأى بدر الدين ان مظفر الدين صاحب اربيل اتفق مع عماد الدين زنكي صاحب العقر لينازلا بلد الموصل ويحتلا القلاع وان التذلل

لا يفيده ويتعذر عليه محاربتها وحده استغاث بالملك الاشرف صاحب ما بين النهرين وخلاط ووعده ان يكون منقاداً له كأحد زعمائه . فسُر الاشرف ووجه الجنود الى نصيبين ليعضدوا بدر الدين متى استدعاهم .

وفي السنة ٦١٦ للعرب (١٢١٩ م) انحدر عماد الدين زنكي من قلعة العادية الى قلعة العقر ليحتلّ بلاد السهل بعد احتلاله بلاد الجبل . فسمع بدر الدين وارسل الجيوش ليحرسوا البلد . واتفق الزعماء والقوّاد معاً ليذهبوا الى جانب العقر ويحاصروا عماد الدين زنكي دون علم بدر الدين . فساروا الليل كلّه ولمّا اصبح نهار الاحد سلخ محرّم التحم القتال تحت قلعة العقر فانكسر (٤٣٥) زنكي اقبح انكسار وانهزم الى اربيل عند مظفّر الدين وعاد المواصلة الى موضعهم . واقبل اذ ذاك وفود الخليفة الناصر والملك الاشرف وصالحوا الفريقين وهادنوهما .

وما كادت تُعقد الهدنة حتى مات الفتى نور الدين ابن الملك القاهر صاحب الموصل وكان طول حياته عليلاً لا يركب ولا يظهر الّا مرة في كل عشرة ايام. فنهض بدر الدين وولى مكانه اخاه ناصر الدين محمودًا وهو في الثالثة من سنيّه. واستحلف الزعماء نجياته واركبه ليشاهده الشعب . وقد ابتهجت قلوبهم كل الابتهاج لانهم شاهدوا ملكاً من عترة اتابك التي كانوا يحبونها حبًّا جمًّا .

وعلى اثر موت نور الدين وخلافة اخيه الصغير تحرّش كذلك مظفّر الدين وزنكي بالمواصلة ونشبوا يغزون الضواحي . امّا بدر الدين فكان قد وجّه اغلب العساكر الموصلية الى حلب ليساعدوا الملك الاشرف في غزو بلاد الفرنج. فارسل من ثم الى ايبك قائد جيش الاشرف وهو في نصيبين وأحضره اليه . ولمّا رأى ان عسكره قليل خالجه الريب وتردّد متحيرًا ولا سيما لان الجيش الذي ارسله الى الاشرف كان اوفر عددًا . غير ان ايبك جعل يتغطرس واضطرّ بدر الدين ان يعبر دجلة في عسكره ويذهبوا ليغزوا بلد اربيل . وما ان سمع مظفّر الدين حتى حشد عساكره وعبر الزاب . وسار بدر الدين وايبك وحلّ الجانبان احدهما مقابل الآخر . وعند انتصاف الليل نهض ايبك ليذهب فيقابل عساكر اربيل . فنهاه بدر الدين ليصبر حتى الصباح فأبى. وركب هو وأركب اصحابه ورأى بدر الدين ان يتبعه كذلك . والتقيا هما والخصم وانهزم

ايبك الى ميسرة صاحب اربيل وحملت ميمنة اربيل على ميسرة بدر الدين (٣٣٦) فبقي في القلب مع قليلين ولم يمكنه الوقوف تجاه قلب عسكر صاحب اربيل فانهزم اسرع ما يكون وعبر دجلة الى الموصل ولم يقف بل استأنف الذهاب الى مدينة بلدَ ليجمع عساكر جديدة . وتبعه مظفر الدين واقام وراءه تلّ حصن نينوى ثلاثة ايام . ولمّا علم ان بدر الدين مستعدّ لمهاجمته ليلاً انقلب الى اربيل . ولم يؤذِ احداً حين مروره بنينوى لكنّ بعض الشهرزوريين الذين معه خطفوا فتاةً وهي عروس جديدة من قرية بيت سحرايا فغار اهلها وانقذوها وقتلوا ببعض الاكراد. فسمع المظفّر وتفاقم غضبه اذ قيل له : ان الفلّاحين شتموه وهتفوا بحياة بدر الدين صولجان الذهب . ووجّه جيشاً الى تلك القرية ودخل بعضهم الى الكنيسة حيث كان اغلبهم متحصّنين وقتلوا بثلاثمائة رجل تقريباً وذهبوا . ومرّوا ببرطلّي وبتروا بالسيف يد احد الشبّان. وبعد هذا كلّه تبادل الفريقان بالوفود وعقدا الهدنة. .

وفي السنة عينها رأى المتحصّنون في قلعة كواشي ان عماد الدين زنكي احتلّ جميع القلاع فارسلوا وسلّموه اياها وطردوا منها اصحاب بدر الدين. ولمّا عرف بدر الدين ان مظفّر الدين لا يثبت في عهوده ولا يكفّ عن اثارة زنكي ليتحرّش به ارسل الى الملك الأشرف يسأله ان يأتي هو عينه لمساعدته ويردع صاحب اربيل. غير انّ خصوم الأشرف يومئذٍ كانوا كثيرين منهم السلطان كيكاوس وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين والامير ابن مشطوب والأمير عزّ الدين الحميديّ . فلذلك لم يتمكّن من القدوم الّا بعد زمان.

وفي ذي القعدة ٦١٦ (٤٣٧) وهي السنة ١٥٣١ لليونان (١٢٢٠ م) في كانون الثاني مات السلطان عزّ الدين كيكاوس بن كيسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم. وكان قد حشد الجنود ليزحف ثانية وينازل الاشرف في ما بين النهرين. وما ان وصل الى ملطية حتى اشتدّ عليه داء السلّ. فرجع ومات. وبعث الاقطاب وأطلقوا علاء الدين كيقباد من حبسه في قلعة مسارا بالجبل المبارك ونادوا به ملكاً . وذكر بعضهم ان السلطان عزّ الدين قبل موته ارسل فأطلقه واستحلف الزعماء ليملّكوه اذ لم يخلّف ابناً يستحقّ المُلك . على انه لما رأى في اوّل عهده أن خصومه كثيرون كاليونان والارمن جيرانه وعمّه

صاحب ارضروم صادق الملك الاشرف وسأله ان يزفّ اليه اخته . وقد اجاب الى طلبه بعد ثلاث سنوات.

وفي هذه السنة وهي السنة ٦٦٨ للارمن مات لاون ملك قيليقية وكان محنّكاً في الحروب وبطلاً مغواراً في المعارك ولم يخلّف الا بنتاً واحدة اسمها ايزابيل وتولّى سيرادان بالي صاحب قلاع ساحل البحر العناية بها والاشراف على المملكة نحو سنتين ثم فتك به الاسحيليّون.

وفي محرّم السنة ٦١٧ للعرب (١٢٢٠ م) نزل جنكزخان على مدينة بخارى وهي كعبة الدين الاسلاميّ في البلاد الواقعة بعد نهر جيحون . واناخ على باب القلعة . واقبل معه جيوش كثيفة من المغول يفوق عددهم عدد الجراد والنمل وحلّوا افواجاً افواجاً حول تلك المدينة التاعسة . وكان فيها نحو عشرين الف فارس مقدّمهم سونج خان وكشلي خان. فلما رأى هذان (٤٣٨) ضخامة جيوش التتر قطعا الأمل وخرجا عند غروب الشمس وانهزما . ولمّا وصلا الى سواحل جيحون وثب اليهما حرّاس الطرق المغول واجهزا عليهما وعلى كلّ من معهما . امّا اهل المدينة فلمّا لم يبقَ من يدافع عنهم فتحوا الابواب وخرجوا الى خدمة جنكزخان فأشفق عليهم ولم يقتل احدًا منهم . ولمّا دخل المدينة ليشاهدها ووصل الى باب المسجد الكبير قال : هل هذا دار السلطان ؟ قال الكتبة العرب: كلّا بل بيت الله . فنزل عن حصانه ودخل فجلس قدام المحراب وصعد تولي ابنه الصغير درجات المنبر. وقال جنكزخان : ان الصحراء خالية من العلف فانتم اشبعوا الخيل الجائعة . فذهب الزعماء. وفتحوا الانبار وآبار الحنطة والشعير وجعلوا ينقلون على اكتافهم العلف للخيل ويجلسون ينتظرون. واحضروا الخمور وسقوا التتر واستدعوا المطربين والمطربات والرقاصات يرقصن وقلوبهن مملوءة حسرات وأسفاً.

ثم استدعى جنكزخان الزعماء. وقال لهم : ان الأموال التي فوق الارض لا حاجة بنا الى استعلامها وانما نريد ان تظهروا لنا الدفائن التي في قلب الارض وتعطونا اياها فتحيوا. فقبلوا بالسمع والطاعة وساروا فحفروا واخرجوا واحضروا كمّيّة لا تُعدّ. ولأنّ جماعة من عسكر السلطان كانوا مختفين بالمدينة أمر فرموا بها النار فاحترقت كلها مع كلّ ما كان مخفيًا بها . وتفرّق الاهالي في مختلف

البلاد . وقد سأل الخراسانيون بخارياً وصل اليهم عمّا جرى فقال : ما لكم تتعبوني ؟ قد وصل التتر فقتلوا وحفروا واحرقوا وسبوا وذهبوا . من له اذنان سامعتان فليسمع.

وفي هذه السنة سار ابن مشطوب الذي ذكرنا انتقاضه على الاشرف متوجهاً الى نصيبين يريد السفر الى مظفّر الدين في اربيل (٤٣٩) فبرز اليه متولي المدينة وكسره وشتّت من معه . وانهزم ابن مشطوب مع القليلين الى بلد سنجار . فسمع فروخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي وارسل جيشاً قبض عليه واحضره اليه معتقلاً . وكان فروخ محالفاً الاشرف غير ان ابن مشطوب أفسد بينها واقسم انه يواصل القتال حتى ينتزع الموصل من يد بدرالدين ويتسلّمها . ذلك ما حمل صاحب سنجار على إطلاق ابن مشطوب وجهّزه بعساكر خيّالة ووجّهه الى باعربايا ليغزوها . فسمع بدر الدين ووجّه جنوداً تغلّبوا على ابن مشطوب فانهزم الى قلعة تل عفر وهي لصاحب سنجار . فعرف بدر الدين وزحف اليها بشخصه حتى دوّخها واعتقل ابن مشطوب وبعثه الى الملك الاشرف فسجنه في حرّان وفيها مات .

ثم ان الملك الاشرف تخلّى لصاحب آمد عن حاني وجبل جور ووعده بان يحتل دارا ويوليه اياها . وبعدما فصله عن صاحب ماردين تقوّى واقبل الى دنيسر واحتل ضواحي ماردين باسرها وحصر صاحبها في القلعة ومنع عنه الذخيرة. فسار صاحب آمد وتوسّط بين الاشرف وبين صاحب ماردين وصالحها وانتزع الاشرف منه راس العين وثلاثين الف دينار وضمّت موزر بارض شبكتان الى صاحب آمد . وزحف الاشرف الى نصيبين فخافه صاحب سنجار ووجّه اليه سفيراً وسلّمه بلدته وهو في الطريق واخذ بدلاً منها الرقة وسار اليها في اخوته واهله وجميع امواله . وبعدما احتلّ الاشرف سنجار جعل يرسل جنوده الى الموصل قاصداً الذهاب الى اربيل وتبعته شراذم من الفرسان سيّرها أمامه وأقبل بعدها الى الموصل يوم الثلاثاء ١٩ جمادى الاولى من تلك السنة . وجاء اليه السفراء من قبل الخليفة ووعدوا (٤٤٠) باسترجاع كلّ الحصون التي انتزعها زنكي وتسليمها الى بدر الدين ليجري الصلح ما بينهم. لكن الاشرف رفض وارتحل من الموصل وعبر دجلة وتوجّه الى قرية سلامية قرب نهر الزاب.

وكان مظفر الدين نازلاً في جانب الزاب الآخر . اما ناصر الدين صاحب العقر وحليف الاشرف فكان مرتبطاً بصداقة خفية مع مظفر الدين ولذا اشار الى الاشرف ان يعقد الصلح ويعود معززاً مكرماً . وقال له : اذا انتصرتَ أسخطت الخليفة وذلك العرب جميعاً . واذا انكسرتَ خلفتَ لك ولاصحابك اسماً سيئاً . فاقتنع الاشرف ووافق على الصلح واخذ معه عماد الدين زنكي صاحب العقر بمثابة رهينة ريثما يردّ الحصون التي أخذها ثم عاد الى سنجار . ثم سار بعضهم لينتزعوا الحصون ويسلموها الى اصحاب بدر الدين لكنهم لم يتسلموا الا حصناً واحداً من بلاد الهكارية اما البقية فقد قاوم اصحابها ولم يريدوا ان يسلموها . واستغاث مظفر الدين زنكي بشهاب الدين غازي اخي الاشرف وهذا توسط بينه وبين الاشرف فترك له تلك الحصون . وقد ارتاب في ذلك بدر الدين لكنه لم يقدر ان يناقض ارادة الاشرف .

واطلع يومئذ بدر الدين سراً على ان الاشرف يحاول ان ينتزع منه قرية تلّ عفر لانها كانت فيما سبق تابعة لسنجار فارسل وسلمه اياها . اما زنكي فبعد ما تولى حصون الهكارية والزوزانية جميعها حقق بعضَ اصحابها ويخاطبهم بالطلب . فندم الذين عاهدوه وحاولوا ان يتفقوا مع بدر الدين ولكنهم تخوّفوا مما اظهروه له من المعاكسة سابقاً . اما بدر الدين فارسل يؤمنهم بالاقسام والعهود ويؤكد لهم انه لن يضرهم (٤٤١) بل يحسن اليهم ويحسب ذنبهم نعمةً بخروجهم على الاشرف . واتفق اصحاب حصن العمادية اولاً ان يسلموه . غير ان بدر الدين لم يستطع ان يأخذ شيئاً دون امر الاشرف واذنه فارسل اليه يستشيره . فأبى الاشرف ولم يأذن له في ذلك الا بعد ما تخلى له عن حصن الحدث المجاور لنصيبين وعن مكان ما بين دجلة والفرات . وبعد هذا تولى بدر الدين العمادية وجاد على الذين سلّموها بعطايا أوفر مما وعدهم بها . وبلغ ذلك سائر اصحاب الحصون فسلموها له . ومما يدعو الى الاستغراب ان الجيوش الوافرة العدد التي احتشدت من سورية وما بين النهرين وارمينية وسائر البلاد لم يتيسر لها ان تحتلّ تلك الحصون وقد احتلها بدر الدين بحنكته دون معارضة . وصحّ في ذلك قول الكتاب : « الاعتصام بالربّ خيرٌ من الاتكال على العظماء » (مز ١١٧ : ٩) .

وفي تلك السنة مات الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب صاحب حماة بالمًا الحسين من سنه . وأوصى ان يخلفه ابنه الملك المظفّر تقيّ الدين وكان يومئذٍ عند خاله الملك الكامل في مصر . غير ان الزعماء ارسلوا فاستحضروا من دمشق ابنه الثاني الملك الناصر قلجٌ ارسلان وسلموه المدينة .

وفي السنة ٦١٨ للعرب (١٢٢١ م) سار الملك المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف وصاحب ماردين والجيش الحلبيّ والملك الناصر صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص لينجدوا الملك الكامل . وزحفوا جميعاً الى دمياط وحصروها وقطعوا الطرق عن الفرنج . فتخوّفوا واتفقوا ان يسلموا المدينة مع جميع الاسرى العرب الذين في عكة بشرط ان يدعهم العرب يرحلون الى بلادهم بالامان . واخذ منهم الكامل رهائن ريثما يسلمون المدينة والاسرى . وأيّد الصلح (٤٤٠) القاصد الرسولي نائب البابا الروماني وكان متولياً قيادة الجيش الفرنجيّ لثانية اعوام واتفق معه في ذلك جوان صاحب عكة[1] هكذا استرجع العرب دمياط وأمسى عمل الفرنج دون جدوى . على ان الملك الكامل قبل وصول النجدة اليه ألحّ على الفرنج في عقد الصلح مقرّرًا ان يتخلى لهم عن اورشليم وعن عسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية ويكتفي بدمياط كي تنجو منهم مصر واصقاعها لكنهم رفضوا طلبه واستزادوا قلعة الكرك وثلاثمائة الف دينار بدلًا مما اخربه الكامل من اسوار اورشليم . ذلك ما حمل الكامل على الاستنجاد باخوته وابنا دينه فاقبلوا واسترجعوا دمياط مجّانًا . وخسر الاخوة الدواوية كذلك نصف ما كانوا يستغلون من حمص وخسر الاسبتاريون ما كانوا يقبضونه جزيةً من بارين . وقد بقيت دمياط هذه المدّة مع الفرنج سنةً واحدةً وعشرة شهور واربعة وعشرين يوماً .

وفي تلك الغضون وثب الاسمعيليون الى سيرادان مدبّر مملكة الارمن وحصروه في مضيق فجاء كنيستنا في سيس المبنيّة باسم مار برصوما وفتكوا به . وخلفه بالي بارون قسطنطين بن بارون باسيل خال الملك لاون . ولمّا بلغ روفين خبرُ وفاة الملك لاون ومقتل سيرادان أخذ امّه ابنة الملك روفين الكبير

١) هو يوحنا دي برين ملك اورشليم .

وانحرا حتى وصلا الى ميناً حصن فوريفس يريد ان يتوفى قيليقية . اما صاحب الحصن المذكور اعني البارون بهرام صاحب شاكد فسد دونه الطريق وهدده بان يتزوج بامه والا فيقبض عليه ويهلكه . فتضايق روفين وتوسل (٤٤٣) الى امه في ذلك. فانزعجت كل الانزعاج وجعلت تولول وتقذف بهرام بالسبات والشتائم. غير ان السادة والسيدات اقنعوها حبًا لمصلحة ابنها بما كلفها الامر. فاضطرت ان تجيب الى اخاهم وهي تتمرح بان زواجاً كهذا تحسبه زنىً قسرًا لا زواجاً شرعياً. وبعدما اقترن بها بهرام بالغ في اكرامها وسار في خدمتها وخدمة ابنها الى طرسوس واحتلها. ومن هناك توجه الى آطنة واحتلها كذلك. ثم زحف الى المصيصة فحشد بالي بارون قسطنطين جيوشه وثار الى بهرام وناوشه فانهزم بهرام وامراته وابنها وتتبعهم بالي بارون الى طرسوس وقبض على ثلاثتهم وفتك بهم . وجعل يؤمل من الزعماء الارمن ان يشيروا عليه ليتزوج احد ابنائه الخمسة بابنة الملك لاون ويتولى المملكة . غير انهم لم يقولوا له شيئاً في هذا الصدد فارتاب منهم وبدل سياسته معهم.

اما الزعماء فارسلوا واستدعوا فيليب ابن البرنس الاعور وزفوا اليه ايزابيل بنت الملك لاون وولوه قيليقية ونهض بسياستهم سياسة خرقاء مدة سنتين واكثر. فقد خطر له ان يهلكهم جميعاً ويقيم الفرنج مقامهم وجعل يستحقرهم ويستخف الجنود فلاحين ولا يرخص لهم ان يتناولوا الطعام على مائدته. وكانوا اذا طلبوا ان يزوروه لا يأذن لهم في ذلك الا بعد ان يقصدوه عشر مرات او اكثر. هكذا ازداد بغض الارمن له ولم يسعهم بعد ان يحتملوا عتوه فاحتشدوا عند بالي بارون قسطنطين وتوسلوا اليه ليجد لهم طريقة للتخلص منه معربين له عن تندمهم بسبب اقامتهم اياه ملكاً عليهم. فاقسم لهم بالي في ذلك وأعد الجنود والابطال ووثب الى فيليب ليلاً وهو راقد في فراشه وخطفه من حضن الملكة (٤٤٤) فجعلت تبكي وتحدش وجهها وتضج وتولول وتقول : بير بير ! لانها كانت كلفة به جداً. اما الجنود فلم يكترثوا لها ولم يعبأوا باصواتها بل اوثقوا فيليب واستاقوه من موضعه في تل حمدون الى سيس وحبسوه هناك سنتين. اما البرنس ابوه فعلى عزة نفسه لم يرَ ان يغيظ الارمن خيفة ان يهلكوا ابنه فارسل اليهم الوفود طالباً ان يطلقوا سبيله وهو يتخلى لهم عن الملك . وظل

يبعث الوفود حتى كلّ وملّ فرأى ان يذهب بذاته الى تلّ حمدون ويسألهم ان يعطوه ابنه . فأذعنوا له ومضوا بابنه الى حصن العامود وكتبوا اليه ليبعث ويأخذ ابنه . ولما عوّل على أخذه قيل له ان ابنك لن يعيش اكثر من عشرة ايام لان الارمن قد سقوه سمًّا وقد تحقق ذلك . على ان البرنس بعدما توعدهم وتهدّدهم تركهم وانصرف وما عتم ان بلغه خبر موت ابنه ولم يعرف احد اين دفنوه .

ولما نُعي الى الملكة وقطعت الرجاء منه سارت الى قلعة سلوقية على ساحل البحر واستعانت بالاخوة الفرير فبالغوا في اكرامها . ثم قدمت اليها امها من قبرس وهي فرنجية ابنة ملك تلك الجزيرة ولما زفوا ابنته الى فيليب ارادوا ان يزفّوها كذلك الى السير غوفري صاحب سروند وهو ابن البارون سنباط اخي البارون قسطنطين بالي . غير انها رفضت الزواج فطردوها من بلدها وسارت الى قبرس . وفي هذا الزمان رجعت الى ابنتها واقامتا كلتاهما في سلوقية حتى رحلتها بالي على كره منها .

احتلال التتر سمرقند

وفي هذه السنة ٦١٨ للعرب (١٢٢١ م) بعدما احتلّ التتر بخارى ساروا الى سمرقند وهي مدينة عظيمة (٤٤٥) حافلة بقرى كثيرة مكتظة بحدائق شهيرة. وقد رتّب فيها السلطان محمد مائة وعشرة آلاف فارس يقومون بحراستها. ولما سمع جنكزخان نزل عليها بشخصه واحدق بها المغول واحصوا ابراجها واشتعلت الحرب بينهم وبين اهاليها على السور . وخرج في الغد جنود المدينة راجلين الى التتر وحاربوهم حربًا عنيفة واجبروا على الكثيرين منهم وقبضوا على غيرهم واستاقوهم الى المدينة وفتكوا بهم واماتوهم شرّ ميتة . ولما شاهد الاهالي ذلك خافوا جدًا وقال احدهم لصاحبه اذا اغمضنا وتغاضينا فسيتقم العدوّ لقتلاه . ثم تشاوروا معًا وارسلوا رسلًا الى جنكزخان خفيةً ووعدوه ان يفتحوا الابواب ليلًا ويسلموه المدينة . فابتهج لذلك وقرّر لهم الامان . وعند المساء اتفق القاضي وشيخ الاسلام وجمهور الاهالي وفتحوا الابواب فدخل المغول وانهزم المحاربون الى القلعة ولاذوا بها . ونشم التتر في السبي والنهب .

وصاروا يخرجون من الزجاج والنساء مائة مائة بالعدد الى الصحراء واجلسوهم افواجاً افواجا سوى حسين الفا احتموا بالقاضي وشيخ الاسلام ولم يخرجوا . ولما كان الليل خرج التتر واجهزوا على كلّ الذين خرجوا خارجا ولم يتركوا من البنين والبنات الاّ من كان دون العشرين من العمر . على ان واحداً من زعماء القلعة أبدى بسالة فائقة فاخذ نحو الف رجل وشقّ صفوف التتر وجاز بينهم دون أذىً ولاذ بالفرار الى خراسان يريد السلطان محمدا .

احتلال التتر خوارزم

ولما استراح جنكزخان من محاربة سمرقند بعث ولديه جيغاتاي واوكتاي الى خوارزم . وخوارزم اسم لاقليم عاصمته (٤٤٦) جرجانية . فلما سبق بعض التتر سائرَ الجيوش كألوف عادتهم ووصلوا الى باب المدينة ظنّ الاهالي ان اعداءهم هم هؤلاء القليلون فقط فخرج جمهور غفير منهم راكبين وراجلين ليبارزوهم . وعند بلوغهم الى كم كورام وهو على مسافة علوة انقضّ عليهم جيش المغول وفتك بهم فاطبة . وكان عددهم نحو مائة الف . وبعد هذا زحف التتر بكل قواهم واحتاطوا المدينة دون صعوبة واخربوها وفتكوا بسائر اهاليها .

اما السلطان محمد فكان قد غادر خوارزم الى خراسان وظلّ يشاور الزعماء في ما يصنع وكيف يتيسر له التخلص من أيدي هذا العدوّ القويّ ؟ فقالوا له : لقد قطعنا الامل من البلاد التي ما وراء جيحون فبقي علينا ان نحصن خراسان ونهيئ العساكر لينازلوا الاعداء متى قدموا . فقال السلطان : لم يبقَ لنا قلب لمبارزتهم واذا اقبلوا الينا فليس لنا الا الفرار الى الهند من وجههم . غير ان ابنه جلال الدين خوارزمشاه لم يوافق على الهزيمة بل رأى ان يواصلوا الحرب حتى النهاية . فانتهره ابوه وجعل كمن سيعاجله الموت ياكل ويشرب ويتلذّذ في رغد العيش ويشبع اهواءه . وهو لكذلك اذا بالتتر قد عبروا مياه جيحون فلاذ بالفرار نحو همذان وزوّج نساءه واولاده الصغار الى قلعة بالان . ولما وصل التتر الى همذان انهزم السلطان في الجبال يريد مازندران . فتتبّعه التتر فانهزم بحرًا الى احدى جزائر هرقانية واقام هناك حتى ورده الخبر بان التتر احتاطوا تلك القلعة واعتقلوا نساءه وابناءه وبناته (٤٤٧) وفتكوا

بالذكور وأرسلوا الاناث الى فراقورم . فاستحوذ عليه من الكمد ما استحوذ وقاسى ما قاسى من المرض حتى ادركه المنون في تلك الجزيرة ودفنوه هناك ثم نقلوه بعد زمان الى قلعة اردهان .

ولما نعي السلطان محمد الى ابنه جلال الدين قطع اربعين غلوة في ليلة واحدة حتى بلغ بلاد العجم التي بحدود الهند . واجتمع اليه تسعون الفاً من خيرة الفرسان . ولما علم جنكزخان ذلك توجه اليه جيشاً جرّاراً من المغول فسمع جلال الدين وخرج ليبارزهم وقال لاصحابه ان يتزجلوا جميعاً ويقبض كل منهم على حصانه بيده مستهيناً بالموت . وقد فتكوا يومئذٍ بعدد غفير من المغول وبطحوهم على الارض . وبات الصفان تلك الليلة كلٌّ في مكانه . وفي الغد لما رأى التتر شجاعة الخوارزميين حاولوا الفرار وتتبعهم الخوارزميون وفتكوا بخمسمائة بطل منهم . وما ان سمع جنكزخان حتى وصل كالبرق في جيوش كثيفة لا تُحصى فشاهده جلال الدين واستيقن انه عاجز عن مقاومته وانتوى ان يعبر نهر جيحون الى المشرق وأوصى باعداد السفن . فسمع جنكزخان وسيّر جيشاً ضخماً سدّ الطريق دونه . فلم يبقَ له الا ان يقاتل حتى النسمة الاخيرة . فاصطفّ الفريقان والتحم القتال وانكسرت ميمنة الخوارزميين ثم ميسرتهم وبقي جلال الدين في الوسط مع سبعمائة فارس لا غير وجعل يطوف كالذئب من ناحية الى ناحية ويحمل على التتر وهم يزدادون عدداً ويثبون اليه من كل جهة . عند ذلك أسرع ابن خاله الامير الخوارزميّ وتشبّث بضفائر حصانه وردّه (٤٤٨) الى ورائه . فانحدر جلال الدين مأيوساً وقبّل اهله واولاده وهو يبكي بكاء مرًّا ثم تركهم وركب حصانه وقال للفرسان اصحابه : من أحبني فليتبعني في الحياة والممات . ثم ضرب حصانه وشقّ صف التتر واقتحم الماء راكباً .

ولما شاهد ذلك جنكزخان هرول الى شاطئ النهر وجعل يتفرّس في جلال الدين متعجباً غاية العجب . واراد بعض المغول ان يقتحم الماء ويدركه ولكن جنكزخان نهاهم ووضع يده على فمه متعجبا وقال لولديه : من ابٍ مثل هذا ينبغي ان يولد ابنٌ كهذا ! وقال للزعماء : مثل هذا يجب ان يُدعَى رجلاً . فهذا لما افلتَ هذه المرة بدت اعماله الوافرة العجيبة للعيان ولا يمكن

ان يتلد منه رجل مثل !

ثم ان جلال الدين لحا بسيف وترس ومزراق من الماء والنار والحرب في ستة فوارس فقط عبروا معه . واقام هناك على سواحل جيحون نحو يومين حتى اجتمع اليه زهاء خمسين فارسا وتوجه الى نواحي الهند . وتبعه بعد ذلك من اصحابه نحو مائة فارس وارسلوا امامهم جاسوسا جس الارض وعاد فاخبرهم ان في المكان الفلاني الفين من العساكر الهندية . فسار الخوارزميون وقبضوا عليهم وقتلوهم جميعا واحتلوا خيلهم . وازدادوا حتى بلغوا خمسمائة فارس . ثم اجتمع خمسة آلاف من الهنود واتوا وبارزوهم فانكسروا . وما ان بلغت الاخبار سائر الخوارزميين المتبزمين والمختفين في مختلف الامكنة حتى اقبلوا اليه واصبحوا نحو ثلاثة آلاف . ولما رأى ملوك الهند انهم عاجزون عن مقاتلة الخوارزميين عقدوا الصلح مع خوارزمشاه وارسلوا اليه تحفاً وافرة . غير ان الخوارزميين لم يستطيعوا الاقامة هناك وقد دب فيهم المرض (٤٤٩) وبلغهم ان التتر تركوا خوارزم فعبر جلال الدين نهر جيحون نحو المشرق وخرج برجاله من الهند ووصل الى شيراز . فارسل اليه اتابك سعد صاحبها اموالاً كثيرة وعبيداً وجواري . ومن هناك اقبل الى اصفهان .

وفي السنة ٦٢٠ للعرب (١٢٢٣ م) احتل السلطان علاء الدين قلعة حصينة في ساحل بحر ادرياتيك وسماها باسمه علائيه .

مقتل امين الدولة توما في بغداد

وليلة الخميس ٢٨ جمادى الاولى ٦٢٠ للعرب (١٢٢٣ م) قتل الطبيب المشهور بالفضائل امين الدولة ابو الكرم صاعد بن توما البغدادي من جماعتنا اليعقوبية . كان متضلعا من الطب اميناً في سيرته حكيما سخيا ووسيطاً صالحاً في سد حاجات البائسين وتلبية مطالبهم واكمال اعمالهم . وقد احبه وكرمه الخليفة الناصر ورفع منزلته وولاه تدبير مملكته وبنيه وبناته ونسائه . وكان الخليفة في آخر ايامه قد ضعف بصره وتعذر عليه ان يكتب اسراره لوزيره . فاستحضر امرأة بغدادية تعرف بست نسيم وكانت تكتب خطاً قريباً من خطه وجعلها بين يديه وكشف لها اسراره . وكان كلما شاء ان يكتب شيئاً استكتبها اياه .

واذا وصلت الكتابة الى الوزير مؤيد الدين ابن قسيمي اعتقد انها خط يد الخليفة اذ كان يجهل هو كذلك ضعف بصره . واستمرت الجارية كذلك برهةً حتى شاركها في ذلك خادم اسمه تاج الدين رشيق وصارا يكتبان ما ارادا الى الوزير عن فم الخليفة فيقوم الوزير بما يكتبان .

وكتب الوزير ذات يوم الى الخليفة في شأن من الشؤون وجاءه جواب فيه إخلال بيّن . فتوقف وانكر . ثم استدعى الحكيم امين الدولة المجيد (٥٥٠) واستفسره عن ذلك سرًّا فعرّفه ما هو عليه الخليفة من عدم البصر وان امرأة تكتب خطًّا كخطه وان الخادم رشيق متفق معها فيكتبان ما ارادا دون علم الخليفة . ومن ثم توقّف الوزير عن العمل باكثر الامور الواردة اليه . وشعرت المرأة والخادم بان امين الدولة فضح سرّهما لانه هو وحده كان يزور الوزير ويحادثه . بناء عليه بانّا اخوين يُعرفان بولدَي قمر الدين فرصدا الحكيم في بعض الليالي وهو خارج من دار الخليفة عائد الى بيته ووثبا عليه بسكينيهما . فحدّق بهما وصاح قائلًا : اقبضوا عليهما فهما فلان وفلان . فعاد اليه ذانك الاثنان وأجهزا عليه تماما وضربا بالسكين كذلك حامل فانوسه . فارتجت المدينة عندئذٍ وقلقت دار الخليفة كذلك وحُمل الطبيب ونُقل الى بيته ودُفن فيه وبعد تسعة شهور شيّعوه الى كنيسة مار توما ودفنوه مع آبائه .

وليلة مقتل الطبيب المجيد قُبض على قاتليه الملعونين وشقّ بطناهما وصُلبا في الموضع الذي قتلا المرحوم . وقد خلّف رحمه الله تعالى ثلاثة بنين كرام وهم : شمس الدولة وفخر الدولة وتاج الدولة كبيرهم .

وفي السنة ٦١٨ للهجرة (١٢٢١ م) مات جلال الدين حسن إمام الاسمعيليين وخلف ابنه علاء الدين محمد وهو في التاسعة من سنه . وقد نشأ مع الفتيان الصغار زملائه منصرفا الى اللعب وتربية الخراف والطوفان مع الجمال واناط تدبير ولايته بالنساء . وبعد خمس سنوات لولايته فصّده طبيب من اطبائهم مع انه لم يكن مفتقرًا الى الفصد وتدفّق منه دم غزير كان سببا لتفاقم المرارة السوداوية عليه وجعل يتخيل تخيلات شنيعة . حتى ظن انه الاه . وكان اتباعه بسبب تسكعهم في الضلال يصدّقون كل ما يقول لا يخالفونه . بل كانوا يفتكون فتكًا ذريعاً بكل من يعترض عليه او يعانده . ذلك ما حمل بعض الحكماء

المرتبطين بخدمته ان يعظموه كالاله خوفا منه . وكان من ذات طبعه يكره الزينة ويكتفي لكسوته بثوب من صوف او من قطن ازرق ويساكن الغنم دائما.

حُكي انه لما كان ذات يوم جالسا بجانب احد الجبال وحوله وفود اقبلوا اليه من قبل الملوك المجاورين اشار بجبينه فقط الى خمسين من رجاله الواقفين امامه فألقوا بنفوسهم من علو الجبل وهلكوا . هكذا اخذ ملوك الارض جميعا يهابونه ويبعثون اليه بجزية يردفونها بخيرات اراضيهم .

وفي السنة ٦٢١ للعرب (١٢٢٤ م) مات في سميساط صاحبها الملك الافضل ابن صلاح الدين بن ايوب . وكان متضلعا من العلوم والبلاغة والشعر لكنه كان ضعيفا في سياسته قليل الخبرة الضرورية للملوك . ذلك ما حرمه مملكة ابيه واضطر ان يرضى ببلدة صغيرة عوضا عن ملك ابيه الواسع الارجاء .

وفي السنة ٦٢٢ للعرب (١٢٢٥ م) مات الخليفة الناصر ابو العباس احمد في السن السبعين . وتم ذلك ليلة عيد فصح العرب . وكان متيقظا جدًا مجتهدًا بغير زيه دائما ويخرج فيطوف شوارع بغداد يحاول الوقوف على كل كبيرة او صغيرة . وكان يتزيا تارة بزيّ الاتراك وطورًا بزيّ العجم واونةً بزيّ التجار ولهذا (٤٥٢) قضى على الكثيرين اذ كان كلما شعر باحدٍ عرفه ارسل فقتله دون شفقة . وكان يطوف كذلك مع رجال مشاهير من خواصه فكان اذا مرّ في طريق انهزم الناس منه . وكان الرجل اذا سار مع امرأته ليلًا خاف ان يحدثها حديثا كيفما كان اذ كانا يخافان ان يكون الخليفة معها في البيت او في النافذة او على السطح . وقد رأوه غير مرّة يتعرش بجدران البيوت الى السطوح ليسمع اخبار ما يحدث لا في ولايته فحسب بل في كل الممالك .

حكي ان الخاتون ابنة السلطان قايج ارسلان الخلاطية شخصت الى بغداد في حجها مكة . فاخبروا الخليفة عن جمالها فارسل اليها عجائز البلاط لكي يخطبها فاحتجت بان لها زوجا ولا يمكن ان تتزوجه فتركته وانطلقت الى مكة وافتكرت ان تعود في طريق سورية الى وطنها خوفا منه . وافتكر الخليفة كذلك انها ستصنع كذلك فارسل فرقة من الجنود يصحبونها متظاهرين بانهم يريدون الحجّ نظيرها . ولما عوّلت على الرجوع في طريق اخرى ثبطوها وردّوها على كره منها الى بغداد . وما ان وصلت حتى بلغ الخبر بموت زوجها .

والله يعلم كيف مات ! ثم ارسل الخليفة وادخلها البلاط وتزوجها . وكلف بها غاية الكلف حتى انها لما عرضت عليه ان يبتني لها دارًا كدارها في خلاط ويضم اليها حديقة وسألها عن هندستها أرسل يستدعي الوزير ليلًا واعطاه تصميم الدار والحديقة فخرج من عنده وهيأ مائتي بنّاء. والنّي فاعل واعدّ ما يلزم من القرميد والجصّ وجعل كل منهم يشتغل في جهة وانتزعوا من ابواب البلاط مصاريع حاضرة وجعلوها على مقياس أبواب الدار الجديدة (٤٥٥) . واقتلعوا كذلك الاشجار من اصولها وغرسوها في الحديقة الجديدة . ولما صار الماء كان العمل كله منتهيا كاملًا . ثم مُدّت الحُصُر والسجف وتهيأت كل الحاجات وسارت اليها الخلاطيّة . وما مرّت سنوات حتى ماتت . ولبس الخليفة الحداد كمدًا عليها . ثم أمر ان تقوّض تلك الدار وتلك الحديقة وتُترك خرابا وابتنى لها هناك ضريحًا ممتازًا لا يزال القراء المسلمون حتى يومنا يقيمون فيه الصلوات وتتوزّع عليهم الصدقات .

بعد الناصر الظاهر ابنه

تولى تسعة شهور وكان ابوه قد بايعه بالخلافة ثم خافه وألغى المبايعة وسجنه وبايع بدلًا منه الامير عليًا ابنه الصغير . ومات الامير عليّ في حياة ابيه وخلّف بنين صغارًا وحزن عليه ابوه حزنا شديدًا لا يوصف حتى انه بعث الى كل الملوك يستغربون كيف انهم لم يرسلوا اليه سفيرًا او رسالة تعزية . ومكث وحده في بيت مُظلم اياما كثيرة . وحزن معه جميع اهالي بغداد خاصتهم وعامتهم وكانت فرق النساء يجلسن في كل حي من احياء بغداد وينتدبنه . وكانت فرق اخرى يطفنّ الشوارع لابسات المسوح مسودات الوجوه ينتدبنّ وينحن اياما كثيرة حتى صدر الامر بان كلّ امرأة شاءت ان تبكي لزمها ان تبكي في بيتها دون ان تخرج خارجا .

ولما مات الخليفة الناصر اخرج ارباب الدولة ابنه الظاهر من سجنه وبايعوه بالخلافة اذ كانوا يحبونه لفضله وحلفوا له وأجلسوه على عرش ابيه . ولما اجلسوه قال : كيف يليق ان يفتح الانسان دكانا بعد الساعة التاسعة ؟ فقد بقيت على الحسين سنة وهنذا اتقلّد الخلافة ؟ ثم أظهر من العدل والكرم ما اظهر وردّ اموالًا

جزيلة الى اصحابها كان ابوه قد انتزعها منهم لانه كان طمّاعا . وارتفع عن الناس ما كانوا ألفوه من الخوف وكفّ المفسدون عن السعايات. وعقد لبغداد جسرًا ثانياً على دجلة فصار فيها جسران ولم يكن لها منذ مائتي سنة الّا جسر واحد فقط .

وفي هذه السنة خرج الملك المعظّم صاحب دمشق وغزا ضواحي حماة . فسمع اخوه للملك الاشرف وارسل يلومه . فارتاب منه وارسل اليه شهاب الدين غازي اخاه الثاني الذي كان سابقا في خلاط وميافرقين وحرّضه لينتقض على الاشرف. فخرج الاشرف الى خلاط وانتزعها من اخيه وقبض عليه ولكنه لم يقتله بل وجهه الى ميافرقين ليتولاها .

وفي تلك الاثناء، وجّه بارون قسطنطين بالي الى السيد اغناطيوس بطريركنا (١٢٢٢—١٢٥٢) والى قسطنطين جاثليق الارمن ليقصدا ابنة الملك لاون ويأتيا بها من سلوقية ليصطلحا ويتفقا معا في ما يؤول الى فائدة المسيحيين عموما . على ان السلطان علاء الدين صاحب بلاد الروم انتهز فرصة الخلاف بينهما فاحتل كثيرًا من حصون قيليقية . بناء على ما تقدم سار المغبوطان وألحّا عليها ونصحا لها فلم تقتنع بل زادت على ذلك انها لامتهما وادّعت انهما حالفا القاتل سافك الدم الزكيّ . ولم يتيسر لهما ان يعترضا فتركاها وعادا دون جدوى .

بعد هذا سار بالي ذاتهُ اليها وسأل الاخوة الفرير ان يسلموه اياها قسرًا . فقالوا له : ان بيوتنا وقلاعنا انما هي ملاذ للمسيحيين وليس في امكاننا ان نسلّم امرأةً ملكةً استجارت بنا . فاحتال بالي واشترى منهم القلعة مع كل ما فيها وأخرجهم منها وصار الامر والنهي بيده . وأمسك بكتف الملكة وسحبها ونقلها جبرًا الى طرسوس وجمع البطاركة والاساقفة والكهنة وكلّفهم مع ابنهِ هيتوم وناداوا بهيتوم ملكا على قيليقية يوم احد العنصرة ١٤ حزيران ١٥٣٧ لليونان (١٢٢٦ م) . وظلّت الملكة ايزابيل عشرة اعوام لا تسوغ للملك (٤٥٥) هيتوم ان يعرفها . وبعد ذلك اتفقت معه وولدت له بنين وبنات .

وفي ١٤ رجب السنة ٦٢٣ للعرب (١٢٢٦ م) مات الخليفة الظاهر .

بعد الظاهر المستنصر ابنهُ

تولى سبع عشرة سنة . واخذ يركب ركوباً ظاهرًا يغدو ويروح لا يختفي

في ركبه عن الناس . واهدى من الصدقة اضعاف ما ابداه والده . ووزع صدقات عائلة وجدد ابنية كثيرة. وتقدم بالنشا. مدرسته المعروفة بالمستنصرية التي لم يعمّر في الدنيا مثلها. ورتب فيها اربعة مدرّسين لكل مذهب من المذاهب الاربعة مدرّس واضاف اليهم ثلاثمائة فقيه لكل فقيه معاشا يكفيه يوما فيوما . وشاد لهم حمّاما خاصًا لا يدخله غيرهم . واقام لهم طبيبا خاصًا يعالج مرضاهم.

موت جنكزخان

في السنة ٦٢٤ للعرب (١٢٢٦م) قفل جنكزخان من بلاد خراسان عائدًا الى المشرق . واعتزم الرحيل الى بلاد تنكرت بحدود الهند وهنالك عرض له داء دوي بسبب عفونة الهواء. ولما قطع الامل من معالجة الاطباء استدعى اولاده جغاتاي واوكتاي وتولي وكلكان وجورختاي واوردجار وقال لهم : اني مزمع ان اموت ولا بدّ من شخص كفوء ينهض بحفظ مملكتي دون تضعضع . وهذه هي ارادتي مثلما اعلمتكم غير مرة أن ابني اوكتاي يخلفني في كرسي مملكتي لاني واثق بذكائه ومتين رأيه . فما قولكم في هذا يا ابنائي ؟ فجثوا جميعا على ركبهم وقالوا : انت ابونا وسيدنا ومليكنا ونحن عبيدك السامعون المطيعون لكلّ ما تأمر وترشد . وبعد هذا اشتدّ داؤه وتوفي في الرابع من رمضان شهر صوم العرب (٢٤ آب ١٢٢٧ م) .

وبعد هذا ارسل الابناء الحاضرون (٤٥٦) وفودا استدعوا سائر البنين والانسباء . فوصل من طرف القفجاق توشي الابن الكبير وهردو وباتو وسيبقان وتنكوت وبراكه وبركجار وبغاتيمور واقناس وجغاتاي. واستدعوا من الجنوب اوكتاي الذي أُحيلت اليه المملكة . ومن المشرق استدعوا عمهم اوكتين وبلكتاي نوين واجتاي نوين وتوتي . اما سائر الاخوة الصغار فكانوا في معسكر جنكزخان وقد انتظروا نحو سنتين حتى اكتمل جميعهم . واجلسوا اوكتاي على تخت المملكة .

وفي هذه السنة مات الملك المعظّم بن العادل صاحب دمشق واورشليم وكان رهيبا مخيفا يهوى امتلاك جميع البلدان . واقام المعدّيين يغزون سائر البلاد ولاسيما حمص وحماة . وخلفه الملك الناصر صلاح الدين داود وحمل عمّاه

الملك العزيز والملك الصالح وكاب السرج امامه .

وفي السنة ٦٢٥ للعرب (١٢٢٧ م) عاد مصر الملك الكامل ليأتي الى دمشق وينتزعها من ابن اخيه . ويوصوله الى السامرة برز الامبراطور[1] الالماني الى يافا فأحجم الملك الكامل عن مسئلة دمشق وقدم اليه اخوه الاشرف والملك المجاهد صاحب حمص وساروا معا الى تل العجول وبعثوا وفودا الى الامبراطور واطلعوا على سبب قدومه . فقد صرح لهم بانه انما اقبل غيرة على بيت الرب في اورشليم . فتنزل العرب للفرنج عن المدينة فقط لا عن ضواحيها وعُقد الصلح .

في هذه السنة مات حسنون الطبيب الرهاوي . دخل (٤٥٧) بلاد الروم وخدم سيف الدين امير آخور واختيار الدين حسن . ثم خرج الى ديار بكر وخدم ابناء شاه ارمن وهزار دينار الذي خلفهم وابناء العادل الذين ملكوا هناك واخيرا عاد الى الرها . ولما سمع ابن طفرل الخادم صديقه القديم منذ عهد خدمته لاختيار الدين قد اصبح ابا ومشيرا في مملكة حلب توجه اليه . لكن طفرل القليل الخبرة لم يستقبله بالاكرام كما كان يجب عليه . ولما عُوتب على ذلك قال : انا مقصر بحقه لاجل نصرانيته . واقام حسنون الطبيب في حلب كثيباً متعباً . ولما عزم العودة الى الرها ادركته حمى شديدة لحقها اسهال سحجي في الامعاء ومات في حلب ودُفن في بيعة القديسة بربارة . وكان شيخا جليلاً بدينا خبيرا بالطب ملمًا بالفلسفة . وكان يطالع كتاب البركي دائما . وكان طيب المحادثة حافظا للكثير من اخبار الملوك والحكماء الاقدمين والمعاصرين . واشتهر في زمانه كذلك جبرائيل الطبيب الفاضل في الرها وصنف في السريانية كتبا طبية وفلسفية جمة .

وفي السنة ٦٢٦ للعرب (١٢٢٨ م) اتفق الملك الكامل والاشرف اخوه وهما في تل العجول على انتزاع دمشق وضواحيها من اخيهما الملك الناصر داود ابن المعظم . وان تكون المدينة حتى تل فيق للاشرف ومن فيق الى غزة للكامل . وان يعطي الاشرف للناصر بعض الاماكن في المشرق بدلا من دمشق . ووافقهما الناصر في ذلك وسار الى دمشق لينقل امتعته واهله ويخرج

١) فردريك الثاني ملك النمسا .

لكنه ندم اخيرا ورفض ان يسلمها . عند ذلك سار الاشرف في جنوده وجنود الكامل الى دمشق (٤٥٨) وحاصرها. فامتنعت عليه . فارسل يستدعي الكامل اخاه فأقبل وحاصر المدينة حصارا شديدا واحتلها في اول شعبان وسلمها الى الاشرف . واعطى الاشرف لكامل اخيه بدلاً منها الرها وحران والرقة وسروج وراس العين وموزر وجملين . وترك للناصر قلعة الكرك والبلقاء وضواحي اورشليم والسامرة . ثم ارسل الكامل الجيوش مع الملك المظفر تقي الدين الى حماة لينتزعها من اخيه الملك الناصر قلج ارسلان . غير ان الناصر انحدر من القلعة وقصد الكامل ووعده بالذهب وسأله ان يبقيه في حماة. فرفض الكامل طلبه فقال له الناصر : ان كان لا بدّ لك من اخذ حماة فاحلف لي بانك لن تعطيها لاخي تقي الدين . فحلف الكامل وبعث رجاله ليحتلوا المدينة . غير ان اهالي المدينة والقلعة جاهروا قائلين : اننا لن نرضى الا مليكنا وجعلوا يحاربون بشدة . فارسل اليهم الكامل يقول : هوذا ملككم تقيّ الدين عندكم فسلموه . ففرحوا جداً وسلّموه وسار الى القلعة وبعد ايام انطلق الى حران وكان الكامل يومئذٍ فيها يشرف على البلاد التي وهبت له . فرحب به ووفّاه اليه ابنته وودّعه ومن معه بالحلل وأعاده الى حماة ولاسيما لان بعض المتطرفين كانوا يقولون له ان تقي الدين لن ينجدر من قلعتها الى الابد ولن يقع نظرك عليه . لكنه لما سار اليه دون تكلف أعزه واكرمه . وفي تلك السنة احتلّ السلطان علاء الدين مدينتي ارزنجان وقاماخ.

جلوس الخان على تخت دولة المغول بعد ابيه جنكزخان

في السنة ٦٢٦ للعرب (١٢٢٨ م) اكتمل اجتماع ابناء جنكزخان وارباب المغول واكلوا وشربوا ثلاثة ايام ثم قالوا لاوكتاي : لقد صدر امر جنكزخان (٤٥٩) بان تخلفه في المملكة . فقال لهم قول حكيم : ان أمر والدنا مهما كان فان لنا اخا اكبر مني واعماما أولى مني بالمملكة ثم ان تولي اخانا الصغير متولّ المعسكر الكبير وكان ملازماً لابينا في الخدمة دائماً وقد اختبر نواميس المملكة وسياستها اكثر منا فاذا شئتم فليجلس هو . فصرخوا باجمعهم وقالوا: لا بدّ من امتثال مرسوم ابينا المبارك مهما كلفنا الامر . ثم كشفوا رؤوسهم

ورموا مناطقهم على اكتافهم واخذه جماعتي بيده اليمنى واوتكين بيده اليسرى واجلساه على سرير ذي اربعة مساند اشارة الى اربعة اقطار الدنيا ولقّباه الخان. وتقدم تولي الاخ الصغير الذي ذكر اوكتاي ان الدولة تحق له وسقاه كاس شراب وجثا على ركبتيه وانحنى مبدياً له الخضوع التام. وصنع مثله جميع الاخوة الحاضرين والاقطاب الذين خارج الخيمة فجثوا له على ركبتيهم تسع مرات ثم برزوا الى خارج وجثوا للشمس ثلاث مرات كعادتهم. ولما استقرّ الخان على التخت فتح كنوز ابيه وخزائنه ووزّع على اخوته واعمامه وعلى سائر الاقطاب كل واحد حسب مقامه. وانتخب الاقطاب من بناتهم اربعين عذراء ذوات جمال رائع وزيّنوهن بافخر الحلي والحلل والقلائد المنظومة بالاحجار الكريمة وقدّموهن للخان. وفرحوا جميعاً فرحاً عظيماً جداً. وبعد هذا حتم الخان بان تحفظ جميع نواميس جنكزخان ومراسيمه وصرّح بان من يخالفها يُقتل قتلاً.

وكان جلال الدين خوارزمشاه يظفر يومئذ كالآيل في بلاد خراسان فوجّه الخان جورماغون نوين في ثلاثة آلاف من خيرة (٤٦٠) رجاله الى تلك الاطراف وسيّر سنتاي المجاهد في جيش جرار الى ناحية قبدوقية وبلغارية وبعث غيرهم الى انحاء الهند وسار هو مع الاخوة والانسباء الى الصين.

وفي السنة ٦٢٧ (١٢٢٩م) انتزع الملك الاشرف مدينة بعلبك من صاحبها الملك الامجد ونقل كلّ ما كان في خزائنها وحمله الى دمشق واستقرّ بها.

وفي اول تلك السنة نزل خوارزمشاه جلال الدين منجبرناني بن خوارزمشاه محمد على خلاط وحاصرها اشدّ حصار. وكان فيها تقيّ الدين عباس ومجيرالدين يعقوب أخوا الاشرف. وانتوى جلال الدين منذ خمس سنوات ان يحتل ارض سنعار وسار الى دقوقة وبيت وازيق واخرب واحرق وقتل بحدّ السيف ثم زحف الى مروج شهرزور وارسل اليه مظفّر الدين صاحب اربيل هدايا كثيرة وعقد معه صلحاً. وفي هذه السنة زحف الى خلاط ونصب عليها عشرين منجنيقاً من ناحية البحيرة وتضايق الخلاطيون بسبب الحرب والجوع حتى اكلوا لحوم الكلاب والجحاش. وبيع الرطل السوري من الخبز اعني ستة ارطال بغدادية بدينار مصري.

وعند ذلك حشد السلطان علاء الدين كيقباد عشرين الفاً وسار الى ملطية ووجّه عشرة آلاف الى ارزنجان وأبقى العشرة لديه وكتب الى الاشرف

يشجعه ويصرّح له بانه متوجّه بنفسه الى خلاط ليبارز خوارزمشاه واذا شاء الرب فسيسقي خيله من مياه جيحون بالعجم . ثم ارسل سفيرًا الى خوارزمشاه يقول : انك سلطان ابن سلطان فلا تصنع ما يخالف الشرع . واعلم ان اباك بسبب ظلمه اثار عليه الله تعالى جيوشَ التتر من المشرق . وهذا بيت (٤٦١) ايوب بيت كبير مبارك يركب اخوته وابناء اخيه وابناء عمه وابناؤهم في الفي فارس . ولا تظنّ اني عدوّهم لكني صديقهم ومحاربٌ لاجلهم لان ما بيننا مصاهرةٌ وعمي كذلك هو صهرهم . فيجب ان تحسن معاملتهم حتى تصبح نحن وهم اعداء لاعدائك .

اما خوارزمشاه فاتقح واجابه بانه يتعذر عليه ان يترك خلاط . ثم بالغ في محاربتها . فسخط بعض اهالي وان وسلّموا المدينة الى الخوارزميّين فامتلكوها وانهزم اخوه الاشرف وحسام الدين القيسريّ صهر الاشرف زوج اخته من الامّ وتبعهم عزّ الدين ابيك حاكم خلاط وتحصنوا في القلعة . وما عتم ان طلبوا الامان وسلّموها كذلك . وبعدما احتلّ خوارزمشاه المدينة لم يعتقل اخوة الاشرف بل جعلهم في خدمته يركبون معه ويلعبون امامه كل يوم في الميدان . فخاف الاشرف وسارع في القدوم الى ابلستين واجتمع اليه جنوده . وبرز كذلك السلطان علاء الدين في جنوده واحتشدوا جميعًا في آق شهر . وخرج خوارزمشاه في عساكره للقائهم ومعه اربعون الفًا . وشاهدوا نحو اربعة آلاف فارس من فرسان علاء الدين مشتين فتكوا بهم قاطبةً . ثم اقتتل الفريقان قتالًا شديدًا يوم الجمعة وكانت الغلبة للملك الاشرف . وباتوا ليلة السبت يقتلون ويُقتلون وعند الصباح التحم القتال وانكسر الخوارزميون كسرةً عظيمة وقُتل منهم خلق لا يُحصى عددهم واستؤسر بعض الامراء والجبابرة المشاهير وانهزم الكثيرون منهم الى طرابزون وبلاد الكرج . وسقط نحو الف (٤٦٢) وخمسمائة فارس من كهف عالٍ ليلًا وماتوا . وتم ذلك في آب ١٥٤١ لليونان (١٢٣٠ م) .

(يتبع)